رواء
مجلة فكرية دورية

• سنة التغيير
• ست وقفات مع الخلاف السائغ
• ما سر رواية بعض الصحابة للكثير من الأحاديث؟
• تعزيز الأمن الفكري من خلال الحوار التربوي
• الرزق المنسي.. عطايا إلهية نغفل عنها

واجب الشعوب في حماية النظام السياسي الشرعي

العدد العاشر
محرم ١٤٤٣ هـ
آب / أغسطس ٢٠٢١

هذه المجلة

(رَواء) مجلة فكرية تُعنى بالإنتاج العلمي والدعوي والتربوي والاجتماعي، وتسعى أن تكون منارة في أرض الشام المباركة، تُشع بالعلم والمعرفة من خلال المجالات الآتية:

- الأصالة والانطلاق من ثوابت الدين والأمة، وتعزيزها في النفوس.
- بث القيم الحضارية وروح النهضة في المجتمع.
- تعزيز جانب الائتلاف وجمع الكلمة بين صفوف الأمة.
- إثراء الساحة بمقالات متميزة تلامس الواقع، في قضايا المنهج والتجديد والإصلاح.

ترحب مجلة رَواء بمقالاتكم العلمية والفكرية

ضمن المحاور الأساسية للمجلة

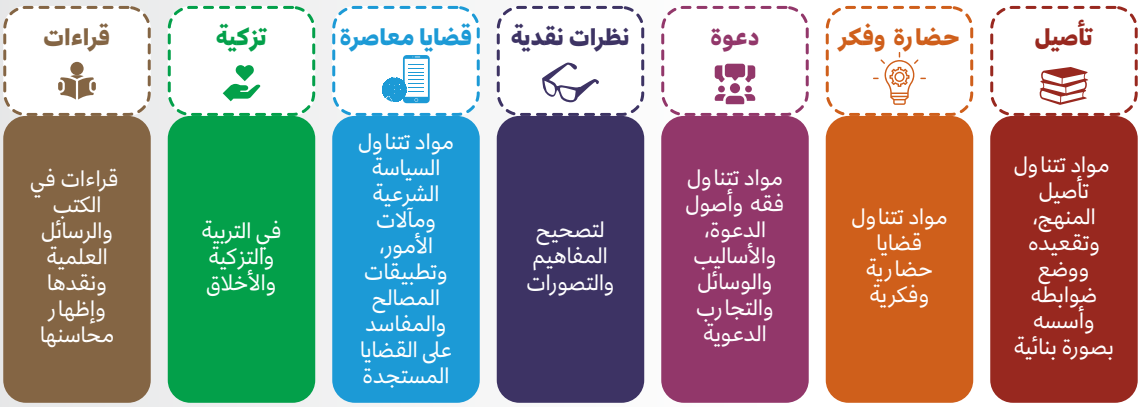

ويشترط ألا يزيد حجم المادة المرسلة عن ٣٠٠٠ كلمة، وأن تكون المادة مكتوبة أصالة للمجلة وغير منشورة من قبل، وأن تراعى فيها سياسات النشر في المجلة

ترسل المقالات والمواد إلى البريد الإلكتروني:
rawaa@islamicsham.org

سياسات النشر في المجلة

١. تنشر المجلة المقالات التي تثري محاورها الأساسية.
٢. تلتزم المجلة سياسة التحرير الهادئة، وتجنب النقد الجارح وما يثير النزاعات والفتن.
٣. لا تنشر المجلة ما يجعلها طرفاً في صراعات دولية أو إقليمية أو محلية.
٤. يُحكّم المقالات الواردة للمجلة متخصصون في موضوعاتها.
٥. أن يكون البحث أصيلاً ومخصصاً للمجلة، ولم يُنشر في أيّ وسيلة نشر إلكترونية أو ورقية، ولم يقدَّم إلى أيّ جهة أخرى للنشر.
٦. تنشر المقالات بالأسماء الصحيحة والصريحة لأصحابها.
٧. تلتزم المجلة بإخبار الكاتب بقرارها من النشر أو عدمه خلال شهر من استلام المقال.

فهرس الموضوعات

معركتنا: حقيقتُها وميدانُها ٢

سُنة التغيير ٦
د. محمد أمحزون

ستُّ وقفات منهجيةفي الخلاف السائغ ١٢
د.معن عبد القادر

ما سرُّ رواية بعض الصحابةللكثير من الأحاديث؟ ١٨
أ. شمس الدين درمش

تعزيز الأمن الفكري من خلال الحوار التربوي في سيرة الرسول ﷺ ٢٥
أ.فداء محمود الشوبكي

واجب الشعوب في حماية النظام السياسي الشرعي ٣٢
د. عماد الدين خيتي

الرزق المنسيُّ.. عطايا إلهية نغفل عنها ٤٠
د.حسان نقرش

المجتمعات الصغيرة وسيلة للنهوض بالأمة الإسلامية ٤٨
م. جهاد بوابيجي

دروس تربوية من آيات آل عمران في غزوة أحد ٥٦
م.حسام سعيّد

قراءة في كتاب: العَلمانيون والنبوة،لماجد بن محمد الأسمري ٦٢
م.عبد القادر معن

بأقلام القراء ٧٠

كذلك كنتم ٧٢
د.خير الله طالب

رواء

مجلة رَواء
دورية فكرية تصدر مؤقتًا
كل شهرين

هيئة الشام الإسلامية

أسرة التحرير

رئيس التحرير
د. عماد الدين خيتي

مدير التحرير
أ. ياسر المقداد

سكرتير التحرير
أ. محمود درمش

تكتب جميع المراسلات باسم رئيس التحرير، وترسل إلى:
rawaa@islamicsham.org

rawaamagazine

www.rawaamagazine.com
www.islamicsham.org

معركتنا: حقيقتُها وميدانُها

مدخل:

تعيش الأمّة الإسلامية منذ ما يزيد عن قرن من الزمن حالةً من الضعف المادي والتخلّف الحضاري، وهذه الحالة لها أسبابها التاريخية المعروفة، ولها نتائجها الواقعية الملموسة، ولا يكاد يختلف اثنان على ضرورة العمل على الخروج من هذه الحالة، والعودة بها إلى سالف مجدها. ومنذ أن هُزمت الأمّة في عقر دارها وتقاسمها الأعداء؛ شرع فريق من أبنائها -أفرادًا وجماعات- يبذلون الجهود العظيمة لاستنقاذ أمّتهم من هذا المستنقع.

هذه الجهود المبذولة، والتضحيات الجسيمة، والتجارب الكثيرة كانت متنوعةً للغاية؛ ففريقٌ نادى بفكرة الجامعة الإسلامية، وغيرهم رأى الدعوة إلى الوحدة العربية، ومنهم من دعا إلى تعلّم العلوم التطبيقية ومجاراة الدول المتقدّمة في المخترعات والصناعات، ويرى البعض في امتلاك القوة العسكرية أو الاقتصادية سبيلاً إلى النهوض. إلا أنَّ تحقيق الهدف المنشود ما زال يبدو بعيد المنال، وهذا ما يُعيد طرح التساؤلات في كلّ مرّة: أين أصبنا؟ وأين أخطأنا؟ وكيف نتعلم من تجاربنا السابقة، ولا نُلدغ مجددًا؟

أين الخلل؟ ومن أين نبدأ؟

لا شكّ أنَّ المصيبة التي نزلت بالأمّة قد ضربتها في جميع مفاصلها، وأفْقَدتها تفوُّقها حتى أصبحت تابعةً لغيرها، مما يجعل العمل على هذا المسار أو ذاك أمرًا مبرّرًا ذا وجاهة، وقد عمل غالب المصلحين في مختلف المسارات؛ السياسي منها، والدعوي، والتعليمي، والخَدَمي، ... وهكذا. ومع ذلك فإنّ لقائل أنْ يقول: إنَّ هذه الجهود لم تؤدِّ النتائج المرجوّة منها، فما زالت الإنجازات محدودة الزمان أو المكان، أو سرعان ما يُبطش بها فتعود الأمور لما كانت عليه.

> **الحال الذي وصلت إليه الأمّة الإسلامية اليوم ليس مجرَّد تراجع أو تعثُّر، بل هو في حقيقته إحكامٌ لسيطرة أمم وثقافات أخرى على الأمّة بما لم يسبق له مَثيل في التاريخ**

وهنا يعود طرح الأسئلة من جديد: أين أخطأنا؟ ولماذا لم نصل للهدف؟ وماذا ينبغي أن نصحّح؟ وكيف نغير طريقتنا؟ ومتى النصر؟ ونحو ذلك.

ومع الإيمان بأنَّ هذه التساؤلات مشروعة، وأنّ المراجعات لتصحيح المسار وسدّ الثغرات واستكمال النقص والرفد بالكوادر مطلوبٌ شرعًا وواقعًا، إلا أنّ ثمةَ مَلحظًا مهمًّا لا بدّ من التنبُّه له.

إنَّ الحال الذي وصلت إليه الأمّة اليوم -لأسباب عديدة- ليس مجرَّد تراجع أو تعثُّر، بل هو في حقيقته إحكامٌ لسيطرة أمَم وثقافات أخرى على الأمّة الإسلامية بما لم يسبقَ له مثيل في التاريخ، لدرجة وضع الأطواق تلو الأطواق حول الأمّة لمنعها من النهوض من جديد، ممّا يعني أنَّ إدارة الصراع والعمل في ظلِّه مختلفةٌ عن العمل في ظروفٍ أخرى، مما يستدعي إعادة النظر في بعض المسلَّمات، من خلال الزوايا الآتية:

١. معركتُنا اليوم ليست متكافئة ماديًا؛ فالعدو يمتلكُ السلاح والجيوش، ويتحكَّمُ في الاقتصاد، ويفرضُ إرادته السياسية، ويسبقُنا بالتقنية والعلوم المادّية والإدارية بسنوات طويلة، فضلًا عن عشراتِ المسائل تحتها من إعلام، وتعليم وغيرها، وتكاد أمّتنا لا تملك قرارها في هذه الأمور.

٢. نحن لا نواجه العدو القوي المتحكِّم مباشرة، بل بيننا وبينه طوقٌ من الحكومات الوظيفية، التي وُضعت لتكريس التخلُّف والتَبَعية، وجَعلِ البلاد ومقدَّراتها رهن العدو القوي، ومواجهةِ أيّ حراكٍ محتمل بقوى الأمن والمخابرات والجيش.

٣. الخروجُ من هذه الحالة ليس شيئًا واحدًا قطعيًا لا يحتمل التعدّد ولا التجزؤ ولا الاجتهاد؛ وبالتالي: لا يمكن تخطئةَ مَن عَمِلَ بالسياسة عند من يرى أنّ واجب الساعة هو الجهاد، ولا تخطئةَ مَن حَمَل سلاحه في وجه الطغيان مدافعًا عن دينه وعِرضه وماله عند من يرى أنّ الواجبَ انتزاعُ الحقوق عن طريق السياسة، وكذا القول في الجوانب الدعوية، والتعليمية، والتربوية، والاقتصادية. فالأمّة محتاجةٌ للعمل في شتّى المجالات ومختلف الأصعدة.

٤. ليس هناك معيارٌ معيّن للنصرِ في هذه المعركة مَن وصلَ إليه فهو ناجح، ومَن لَم يصل إليه فهو فاشل، فضلًا عن عدم وجود نموذج عملٍ مثالي يجب أن تنتهجه جميعُ الجماعات والشخصيات وتُعرض عمّا سواه، فالمعركة ممتدَّة الجبهات، متشعِّبة المسائل، مختلفة الأحوال، وأيّ نجاح فهو محسوب للأمّة، وما ينجح هنا قد لا ينجح هناك.

٥. نهوضُ الأمم وشفاؤها ليس كنهوض وشفاء الأفراد؛ فهي تستغرق أوقاتًا طويلة تمتدُّ لعقود أو أجيال بالإضافة إلى علاقة النهضة بالكثير من العوامل الداخلية والخارجية التي قد تُسرّعها أو تبطّئها ؛ لذا لا ينبغي استعجال النهضة ولا استبطاؤها، ولا تعليق الآمال والنصر بزمن أو جيل[1].

ينبغي ألّا نختلف على أنّ حقيقة المعركة تبدأ من تحدّي بناء الإنسان الواعي، والذي يقوم بدوره بما يناسبه من الأعمال والمشاريع

إذا ما هي حقيقة المعركة؟

إنَّ مما ينبغي ألّا نختلف عليه أنّ حقيقة المعركة تبدأ من تحدّي بناء الإنسان الواعي، والذي يقوم بدوره بما يناسبه ويتقنه من الأعمال والمشاريع، الدعوية منها أو الفكرية أو السياسية أو الاقتصادية وغيرها. فالتدافع بين الأمم تدافع حضاري ثقافي ركنه الأساس هو الإنسان، تتبدّى ملامحه في مختلف ميادين الحضارة، وتنعكس فيها.

ولأجل ذلك اهتمَّ الإسلام ببناء الإنسان أولًا؛ فعمل على تحرير عقله من الخرافات والأساطير، وتحرير جسده من نَيْر الظلم والاستعباد، وتحرير فكره من العبودية لغير الله تعالى، مع تصحيح التصوّرات عن مكانة الإنسان في هذا الكون والتأكيد على كرامته وتكريمه، وتشريع ما يحافظ على إنسانيته وعقله، مما يؤهّله ليكون قادرًا على الخلافة في الأرض.

(١) ومما يدخل في هذا الأمر: التصورُ الخاطئ لانهيار الأمم أو ضعفها واضمحلالها؛ وافتراضُ تصوراتٍ غيرِ صحيحةٍ ولا واقعية في كيفية حدوث ذلك، كما يحصل لدى كثير من السامعين للحديث عن انهيار الحضارة الغربية، وجميع هذا من قلّة الوعي.

وقد عمل الرسول ﷺ على تربية الصحابة رضي الله عنهم في مكّة حتى أحسن تربيتهم وتنشئتهم، فتعلّموا كيف تكون نفوسهم قلاعًا صامدة لا يمكن هزيمتها أمام مغريات الدنيا وزخرفها الفاني، حتى كان آحادهم يفهم الرسالة التي يحملها الإسلام للبشرية، «لِنُخْرِجَ العِبَادَ مِن عِبَادَةِ العِبَادِ إلى عِبَادَةِ ربِّ العِبَادِ، ومِن ضِيْقِ الدُّنْيَا إلى سَعَةِ الدُّنْيَا والآخِرَةِ، ومِنْ جَوْرِ الأَدْيَانِ إلى عَدْلِ الإسلامِ»[1]؛ فكانوا أساسَ إقامةِ أرقى الحضارات البشريةَ فيما بعد، فمنهم من جاهد، ومنهم من تفرّغ للدعوة والتعليم، ومنهم من تولّى الولايات العامة، ومنهم من رجع إلى مكّة أو أقام بالمدينة، بينما هاجر عدد منهم إلى مختلف البلدان؛ فأسّسوا فيها حضارةَ ما زالت آثارها إلى اليوم.

> **ربّى الرسول ﷺ أصحابه خير تربية، فتعلّموا كيف تكون نفوسهم قلاعًا صامدةً لا يمكن هزيمتها أمام مغريات الدنيا وزخرفها الفاني، حتى كان آحادهم يفهم الرسالة التي يحملها الإسلام للبشرية بكلّ أبعادها**

إدراك الأعداء لهذا الأمر:

أدرك الأعداء خطورة مسألة الوعي ومركزيتها في البناء الحضاري، فركّزوا جهودهم في تغييب وعي الإنسان، وحَرْفِ فكره، ليصبح عاملَ تخريب مساعد لهم، أو تحييده ليكون دون فائدة على الأقل، يقول المنصّر «صمويل زويمر» في خطاب له في مؤتمر في القدس عام ١٩٣٥ موضّحًا أهدافَ التبشير: «... ولكن مهمّة التبشير الذي نَدَبتكم دولُ المسيحية للقيام بها في البلاد المحمّدية ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية؛ فإنّ في هذا هدايةً لهم وتكريمًا، وإنّما مهمّتكم أنْ تُخرجوا المسلم من الإسلام ليصبحَ مخلوقًا لا صلة له بالله، وبالتالي فلا صلةَ له بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها، وبذلك تكونون أنتم بعَمَلكم هذا طليعةَ الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية، وهذا ما قمتم به خلال الأعوام المئة السالفة خيرَ قيام، وهذا ما أهنّئكم عليه، وتهنّئكم عليه دولُ المسيحية والمسيحيون كلّ التهنئة»[2].

> **«أشدُّ النكبات التي يُصاب بها البشر نكبة الغفلة؛ لأنّها محوٌ لما تقوم به حياة الناس، والمرء لا يكون إنسانًا ناميًا إلا مع اليقظة؛ فإذا سُلب اليقظة، فقد استقرّ في حومة الموت والهلاك، وإن بقي حيًّا يتحرك»**
>
> **الأستاذ محمود محمد شاكر**

إذًا بأي المشاريع ننشغل؟

إنَّ الناظر لحال الأمة في العقود الأخيرة يُدرك أنّ معركتنا أكبرُ من مجرّد فوز بصندوق اقتراع، أو وصول لمنصب، أو انتصار في معركة ما، أو تقدم صناعي هنا أو هناك، فإنَّ الملاحَظ أنّ هذه المكاسب الممكنُ تحقيقُها مرحليًّا وموضعيًّا -على أهمّيتها- في ظل الظروف الكبرى العامّة تبقى غير راسخة، ويمكن للأنظمة المسيطرة الانقلابُ عليها أو مصادرتُها في أيِّ وقت، وبشتّى الحجج، وسرعان ما يبدأ الحديث عن النقد الذاتي، والمراجعات وتصحيح الأخطاء، وينفضُّ عنها الناس على الرغم من جسامة التضحيات، والعامل الأهمّ والأبرز في هذه المواقف: غيابُ الوعي عن الجماهير أو عدم وضوحه بشكل صحيح، ويمكن التعريج على حالةِ الربيع العربي، وكيف كان نقصُ الوعي عاملًا مؤثّرًا في التراجعات الكبيرة التي حصلت في بلداننا من مصر وسوريا وتونس وغيرها، وكيف كان العبثُ بوعي الناس وسهولةُ تغيير قناعاتهم وأفكارهم من الأنظمة المستبدّة من أهمّ عوامل حسم المعركة.

من مظاهر غياب الوعي:

لغياب الوعي خطورة كبيرة، ونتائجه وخيمة أينما حلّ، بل «أشدُّ النكبات التي يصاب بها البشر، نكبة الغفلة؛ لأنّها محوٌ لما تقوم به حياة الناس، والمرء لا يكون إنسانًا ناميًا إلا مع اليقظة، فإذا سُلب اليقظة فقد استقرّ في حومة الموت والهلاك، وإن بقي حيًّا يتحرك»[3].

وفي واقعنا المنظور صورٌ كثيرة لهذا الغياب، فمنها على سبيل المثال: قدرة وسائل الإعلام الموجّهة على تغيير قناعات الناس وتزوير الحقائق، ودفعهم إلى خيارات ليست في صالحهم، لدرجة تصفيقهم لجلّاديهم وطغاتهم. ومنها الانقسامات

(١) قالها ربعي بن عامر رضي الله عنه لقائد جيش الفرس (رستم) لما دخل عليه مبعوثًا من سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، ينظر: تاريخ الطبري (٥٢٠/٣).
(٢) ينظر مقالة: الإسلام الذي لا يعاديه الغرب، لمحمد السؤالي، موقع تبيان - نصنع الوعي.
(٣) من مقدمة كتاب: في مهب المعركة لمالك بن نبي، بقلم الأستاذ محمود محمد شاكر.

المجتمعية الحادّة لدرجة التطاحن حول قضايا لم يحن وقتها أو ليست ذاتَ أهمّية أو أولويّة. ومنها قعود الجماهير عن حقّها في منع الظالم من الظلم أو جهلها بحجم قوّتها، إلى غير ذلك من القبول بفتات العيش في مقابل سحق كرامتها من قِبَلِ أفرادٍ يتحكّمون في ثروات الأمّة ومقدّراتها.

فهل هذه دعوة للتخلي عن العمل والانعزال للتربية والتعليم؟

كلا وحاشا، ولا يستقيم الأمر بذلك، بل المقصود ألّا تطغى المعاركُ الظرفيةُ على المعركة الأساسية المستمرّة، فالعمل ينبغي أن يكون على مسارين:

- بناءُ الإنسان وصقلُ وعيه ضمن رؤيةٍ صحيحةٍ تتمثّل في السعي إلى التحرّر من هيمنة قوى الأعداء.
- المدافعةُ بالمشاريع المتاحة بحسب معطيات الزمان والمكان، ووفق رؤية التحرّر.

ومن هنا يبدأُ العمل؛ فمعركتنا اليوم معركة وعي، وهذه المعركة نملك التحكّم فيها، ونحن الأقوى في أدواتها؛ فلدينا قرآنٌ يهدي القلوب، وسنّة تضيء الطريق، وثقافةٌ سامية لا ترقى إلى إنسانيتها أرقى الثقافات والحضارات، وتاريخٌ حافلٌ بالدروس والانتصارات، ومعركة الوعي هذه مساحاتها كبيرةٌ لا يملك الأعداء التحكّم فيها.

ما الذي يتطلّبه الوعي ونشره؟

يتطلّب بثُّ الوعي إحياءَ الأمل في النّفوس، وحسنَ إدارة الموارد والطاقات، والكثيرَ من العمل والصبر، وتقديم الغالي والنفيس من التضحيات، وعلى رأس ذلك:

١. تصدّي أهل العلم للتعليم والبيان والفتيا في عظائم الأمور وكلّياتها، قبل صغارها وجزئياتها، وتحمّل تبعاتِ أمانةِ الكلمة والتضحية في سبيل ذلك.

٢. تأصيلُ الوعي لدى طلبة العلم والعاملين في الحقل الدعوي ولفتُ أنظارهم إلى أولويات الدعوة وواجبات الساعة.

٣. قيامُ المشتغلين بالفكر والسياسة والإعلام ببيانِ حقائق الأمور، وكشفِ الأقنعةِ الزائفة، وفضحَ مخطّطات الأعداء وأذنابهم، وتمييز المصلحين من المفسدين.

٤. رفعُ مستوى الإيجابية لدى الشعوب، وبثُّ الأمل فيهم، ودفعهم للعمل والإنتاجية وتكامل الجهود، ونبذُ اليأس والكسل والخلاف.

٥. تعريفُ الشعوب بحقوقهم وواجباتهم، وتربيةُ الجيلِ على المطالبة بالحقوق وأداء الأمانات والواجبات.

وفي النهاية .. يمكننا فعلُ الكثير إذا عرفنا حقوقنا ومكامِنَ قوّتنا، بل لا يمكن للإنسان أن يحصل على حقّه ما لم يعرف أنّهُ حقُّهُ، ولا يمكن للمقاتل أن يقاتل عدوًّا لا يعرف أنّه عدوه، ولا يمكن للطبيب أن يعالج مرضًا لا يعرفه، وأوّل الطريق المعرفةُ، وجلَّ من ابتدأ إنزال الوحي بكلمة (اقرأ).

سُنة التغيير

د. محمد أمحزون(*)

تتطلع الشعوب المقهورة إلى النهوض واستعادة كرامتها وتحسين أوضاعها، فتخوض التجارب وتبذل التضحيات، ومع طول الطريق وشدة اللأواء يتساءل الناس: كيف السبيل؟ ومن أين يبدأ الطريق؟ والله تعالى بيّن لنا أن التغيير سنة من سننه التي لا تتخلف ولا تحابي، فما هي شروط التغيير؟ ومتى يأذن الله به؟ وما الذي علينا فعله؟ تضيء هذه المقالة بعض هذه الجوانب

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]

من شروط التغيير(١): العقيدة أولاً:

ما من شكٍّ في أنَّ أي تغيير لا بدَّ أن ينطلق من فكرة مبدئية؛ لأن الأفكار تبقى هي المحرك الأول لأي عمل أو جهد يزمع الإنسان القيام به. لكن ما هي الفكرة المبدئية الصحيحة الموافقة لسنة الله في الخلق، والتي لا بد منها لحصول التغيير المنشود في مجتمع من المجتمعات؟

إنَّ فكرة العقيدة هي الأساس المركزي الذي يستمدُّ مقومات قوته وبقائه من خالق الكون والإنسان، وهو سبحانه أعلم بما يُصلح أمر الكون والإنسان.

فالإيمان بالله عز وجل شرط أولي لبسط النعمة أو العمران (الحضارة) بالمصطلح الاجتماعي، والعمل الصالح الذي يترجم هذا الإيمان إلى سلوك هو صمام الأمان في الحفاظ على هذه النعمة أو العمران. وبناءً على هذا فإن العقيدة الصحيحة عامل جوهري في التغيير الاجتماعي نحو العمران(٢).

» النواة الصلبة المؤثرة:

على أن التغيير الطموح لا يمكن أن يتحقق أو يُكتب له النجاح حتى تستجيب له فئةٌ مصلحة من الناس، تكون بمثابة النواة الصلبة التي تهيئ الأرضية والمناخ المناسب للأخذ بأيدي الأغلبية من أفراد المجتمع وتحويلهم نحو الإسلام عقيدةً وسلوكًا، بحيث تعمل على بقاء الدعوة حيةً نابضةً في صميم المجتمع.

(*) أستاذ جامعي في التاريخ الإسلامي، له عدد من الدراسات والمؤلفات والمقالات التاريخية والفكرية.

(١) شروط التغيير وموانعه لا يمكن حصرها أو الإحاطة بها في هذا البحث، ولذا نسوق نماذج منها للتمثيل.

(٢) أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق، لأحمد كنعان، ص (١٥٣).

فوجود هذه العُصبة المؤمنة ضروريٌّ لضبط برنامج التغيير، لتُمنح كلُّ مرحلة من مراحل العمل حقَّها من الوقت، دون تفريط يضيِّع الوقت، ويميِّع القضية، ويحرفها عن مسارها الصحيح، ودون إفراط باختصار الوقت، وحرق المراحل، واستعجال الثمرة أو النتيجة؛ لأن هذا قد يجهض العملية إجهاضًا كاملاً. فعمل هذه العصبة من هذه الناحية يشبه عمل المهندس الحاذق الذي كلما أنجز مرحلةً من مراحل البناء قام بفحصها وتقويمها، لكي يستيقن أنها قامت وفق المخطط المرسوم، وأنها أُنجزت حسب المواصفات والمقاييس الفنية المعتبرة، وأنها تتماشى مع البرنامج الزمني المحدَّد للمشروع[1].

> **التغيير الطموح لا يمكن أن يتحقق أو يُكتب له النجاح حتى تستجيب له فئةٌ مصلحة من الناس، تكون بمثابة النواة الصلبة التي تهيئ الأرضية والمناخ المناسب للأخذ بأيدي الأغلبية من أفراد المجتمع**

» دور الزمان:

ثم يأتي دور الزمان باعتباره عاملاً رئيسًا من العوامل اللازمة لإنضاج عملية التغيير؛ ذلك أن التغيير النوعي في المجتمع يتطلب فترة زمنية كافية حتى يكتمل، ويؤتي ثماره يانعة سائغة. وأما محاولة حرق المراحل واستعجال التغيير -قبل استكمال شروطه- فإنه غالبًا ما يُجهض المحاولة من أساسها، وينسف الشروط الأولية التي بدأت منها، بل قد يحول دون توفُّر هذه الشروط مرةً أخرى[2].

وتبدو أهمية الزمان في ارتباط التغيير الاجتماعي أساسًا بتغيير ما بالأنفس؛ إذ من المعلوم أنَّ النفس البشرية ذات تركيب معقد، ومن ثم يتطلب تغيير ما فيها شروطًا كثيرة، ومغالبة موانع عديدة وعوائق يمكن أن تؤثر في النفس؛ مثل: تأثير الأهواء، وحظوظ النفس، والنزعات العصبية، والصراعات الفكرية وغيرها. ولذلك فإن التربية الإيجابية التي تؤدي إلى تغيير ما بالنفس تحتاج إلى وقت مديد.

» فهم الواقع:

إنَّ فهم الواقع الإنساني عامل بالغ الأهمية في الإعداد للتغيير، ولا يقل أهميةً عن فهم الدين نفسه؛ لأنَّ المشكلة التي تعترض مسيرة التغيير هي عدم فقه الخطاب الشرعي؛ وتأصيل منهج للتعامل معه، وكيفية تنزيله على الواقع البشري، الأمر الذي يقتضي فقه الخطاب وفقه الواقع في آن واحد.

وبناءً على أنَّ لكلِّ عصر خصائصه ومميزاته ومستجداته التي يجب أن تعالَج في إطار الأصول الكلية والقواعد العامة للدين، فإنه ينبغي التعامل مع الصور الجديدة للواقع بظروفه وشروطه، والإفادة مما يقدمه العصر من أدوات ووسائل وتقنيات تغني التجربة الإسلامية في التغيير.

على أنَّ أدوات الرصد والتحليل هذه تتمثل أساسًا في العلوم الإنسانية، وهي: علم النفس، والاجتماع، والاقتصاد، والإحصاء، والتاريخ، والتربية.

وتُعَدُّ هذه العلوم آليات ضرورية لفهم الواقع وإدراك أبعاد الإنسان، والتعرف على مفاتيح شخصيته وطرائق تفكيره، والأسباب الكامنة وراء مشكلاته، وهو محل الحكم الشرعي الذي ينزل عليه.

فهذه العلوم بطرق بحثها وقوانينها أدوات ضرورية لكشف الواقع النفسي للفرد وللأمة فيما تشتمل عليه من مركبات أو أمراض أو عوائق، يكون من الضروري أخذُها بعين الاعتبار حينما يُراد تنزيل أحكام الدين في واقع الحياة الفردية والاجتماعية. وكذلك الأمر بالنسبة للتركيبة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية فيما تعانيه من مشاكل، وفيما ترسَّب فيها من سلبيات عبر التاريخ أو عبر التفاعل مع الحضارات والثقافات الأخرى. ولذلك فإنَّ علوم الاجتماع والنفس والاقتصاد والإحصاء والتاريخ أدوات ضرورية في الكشف عن هذه المعطيات التي لا غنى عنها لفهم الواقع، حتى تتم عملية الموافقة والتكيُّف بين الحكم الشرعي ومحلِّه بدقة.

» بناء المعرفة:

إنَّ التغيير يجعل الحاجة ماسّةً إلى معرفةٍ مُنصفةٍ مُتوازنة لنستفيد من الخبرة الإنسانية

(١) أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق، لأحمد كنعان، ص (١٦٢).
(٢) المرجع السابق، ص (١٥٨، ١٦٠).

كاملة، مع نوع من الانفتاح وممارسة النقد وفق معايير شرعية وعمرانية ومصلحية. ولا سبيل لتحريك المعرفة وفتح نوافذها للتغيير والتجديد سوى الاتجاه نحو التجربة واستقراء الواقع عن طريق الإحصاء والمقارنة والاهتمام بجزئيات الوقائع وربطها بأصولها، ثم استخلاص الأحكام والنتائج، وذلك في سبيل فهم أفضل للسنن، وفي سبيل تلمُّس وجوه الانسجام بين الكتاب المقروء «القرآن الكريم» والكتاب المفتوح «الكون» بكل ما فيه[١].

إنه إذا كان المطلوب من المعرفة أن تنهض بأي مجتمع وتخدمه، فإنَّ عليه أن يتجه إلى الحياة، يسبُر أغوارها، ويفهم نظمها، وما فيها من تكيُّف وصرامة، وإمكانيات للمناورة والتصرف مع شروطها وقيودها، عبر فهم عميق للسنن وعلى رأسها سنة التغيير[٢].

العلوم الإنسانية والاجتماعية أدوات ضرورية لكشف الواقع النفسي للفرد وللأمة فيما تشتمل عليه من مركبات أو أمراض أو عوائق، والأخذ بها ضروري حينما يُراد تنزيل أحكام الدين في واقع الحياة الفردية والاجتماعية

من موانع التغيير:

» الانحراف في مفاهيم العقيدة:

وعلى رأس هذا الانحراف معصية الله عز وجل، والتنكُّب عن صراطه المستقيم، وهذا أعظم الأسباب في الخذلان وعدم التوفيق.

كما أنَّ الزيغ في مفاهيم العقيدة يورّث رؤية ضبابية ومشوشة في النظرة إلى الكون والإنسان والحياة، مما يولّد ركودًا عمرانيًا «حضاريًا» نظرًا لضعف المبادئ والقيم المتولّدة عنها.

ويرجع هذا الانحراف أصلاً إلى أمرين:

الأول: حيث يتجذّر الفكر الإرجائي في كيان الأمة، ويقوم هذا الفكر على أن الإنسان مؤمن كامل الإيمان بالتصديق القلبي والإقرار فقط، ولو لم يعمل بمقتضيات وشروط «لا إله إلا الله»، ولو لم يجمع بين القول والفعل لتحقيق شرط الإيمان الذي يتلخص في تنفيذ أوامر ونواهي الشرع.

ويتسبب هذا الفكر الذي يفصل بين القول والعمل، وبين النظرية والتطبيق في انحصار مفهوم العبادة؛ حيث يترتب عليه:

- تأدية الشعائر التعبدية «أركان الإسلام» بصورة تقليدية عديمة الفائدة، حين تُعزل عن بقية أحكام الإسلام ومبادئه وقيمه.
- العناية بالجانب الفردي والشخصي وإهمال الجوانب الاجتماعية.
- إهمال الرقابة على أعمال الحاكم، وإهمال السهر على تطبيق الشريعة التي تعد الصورة العملية للعقيدة.

الثاني: التصوف، وهو عبارة عن فلسفة سلبية تدعو إلى الانزواء وترك الأخذ بالأسباب، وعدم السعي إلى تغيير الواقع من سيئ إلى أحسن، واعتبار ذلك توكُّلاً وديناً.

وتؤدي هذه النظرة المنحرفة إلى احترام البطالة، وإباحة التسول والتذلل، والقناعة بالتافه من العيش، والرضا بالظلم؛ حيث أفسد التواكل الصوفي أصلاً من أصول الإيمان وهو: القضاء والقدر، وحوّله من عقيدة إيجابية دافعة محركة تصنع الأمجاد وتغيّر مجرى التاريخ إلى عقيدة سلبية هدامة مخذّلة، وإلى الرضا السلبي بالواقع وعدم السعي إلى تغييره.

» الانفراد وضعف الفعالية:

إنَّ التغيير في مجتمع ما مرتبطٌ أساسًا بِسُلَّم القيم السائدة في هذا المجتمع من جهة، وبالوضعية العمرانية «الحضارية العامة» لذلك المجتمع من جهة أخرى.

وعندما تتآكل القيم بفعل انتشار عدد من الأخلاق والعادات والآفات الذميمة، وعندما تتشكل شبكة العلاقات طبقًا للدوران في فلك الأشياء والأشخاص، فإنَّ الركود العمراني ومقاومة التغيير يصبح السمة السائدة في المجتمع الذي يتحوّل إلى البطء في كل شيء، ويصطبغ بضعف المحصول العام لحركته ونشاطه.

(١) مدخل إلى التنمية المتكاملة، لعبد الكريم بكار، ص (١٢٣).
(٢) المرجع السابق، ص (١٢٥).

من شروط التغيير

عندما تتآكل القيم بفعل انتشار الأخلاق والعادات والآفات الذميمة، وعندما تتشكل شبكة العلاقات طبقًا للدوران في فلك الأشياء والأشخاص، فإنَّ الركود العمراني ومقاومة التغيير يصبح السمة السائدة في المجتمع

ويرجع ذلك إلى أنَّ أداء الأجهزة والأنظمة لديه غير فعّال، وقوة الإنتاج المختلفة لا تعمل بالكفاءة المطلوبة، كما أن الفرص المتاحة لا تستغل على الوجه المطلوب.

وضعف الفعالية يعود أساسًا إلى مجموعة من العوامل، منها:

- ضعف المبادرة الفردية: وترتبط بشحذ الهمم، وصقل المواهب الاجتماعية وتحفيزها، وكسر حواجز الخوف، وإتاحة الفرص لإجراء التجارب الاجتماعية الحيّة[١].
- الانفرادية وتضخم الأنا: حيث يلغى العمل بروح الفريق، وينتهي العمل إلى صورتين: الأولى: التشظي والتفتت، والثانية: سيطرة قليل من الأفراد على مراكز صنع القرار، واستبدادهم بالرأي والحكم؛ مما يلغي رأي الآخرين ويشطب وجودهم الاعتباري، فيساهم هذا الوضع في قتل الإبداع، واغتيال العقل، وشل جذوة الفاعلية في الأمة.
- النمطية: ومردّها إلى فقر في المعلومات، وفقر في النماذج والصور الذهنية، وهذا كأنه يجعل أكثر أبناء المجتمع فريسة للرؤى الأحادية الإجمالية البعيدة عن التنوع والتفصيل.
- ولذا حيث تعلق فكرة ما في ذهن المجتمع النمطي، فإن تغييرها يحتاج إلى وقت طويل جدًا[٢].
- مقاومة التغيير: عندما تتحول العادات إلى مقدسات في المجتمع -بغض النظر عن مشروعية ذلك أو فائدته- فإن ذلك يعمق في النفوس ضمور روح المغامرة وخمود الهمة.

كما أن هناك شرائح اجتماعية ونخب وفئات ترتبط مصالحها بالمألوف السائد، فتبذل جهودها

(١) نحو فهم أعمق للواقع الإسلامي، لعبد الكريم بكار، ص (٤٨).
(٢) المرجع السابق، ص (٤٩).

لمقاومة كل تغيير، وإبقاء كل شيء على ما هو عليه[١].

وتعود مقاومة التغيير أصلاً إلى عدم فهم المنهج الرباني على حقيقته، وهو منهج يخبرنا أن الإنسان قاصر عن إدراك الحقائق دفعةً واحدة، وهذه المسألة هي المُلجئ الأعظم إلى التغيير والتجديد؛ إذ لو قدّر للإنسان أن يقبض على الحقائق الكونية دفعةً واحدة لانتفت سنن التدرُّج والهدم والتغيير، وهي الآليات التي تنقل الإنسان من طور إلى طور وفق سنن الله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ۝١٦ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ۝١٨ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ [الانشقاق: ١٦-١٩].

> **تعود مقاومة التغيير إلى عدم فهم المنهج الرباني على حقيقته، وهو منهج يخبرنا أن الإنسان قاصر عن إدراك الحقائق دفعةً واحدة، وهذه المسألة هي المُلجئ الأعظم إلى التغيير والتجديد**

» قلة الاكتراث بالوقت:

الوقت أو الزمان هو الوعاء الذي يستوعب كل أنشطة الإنسان، وهو بذلك من المحطات الرئيسة في تقويم أدائه وفعاليته، وهو فوق كل شيء حياة الإنسان؛ كما جاء في الأثر عن الحسن البصري رحمه الله: «يا ابن آدم، إنما أنت أيام؛ كلما ذهب يوم ذهب بعضك»[٢]، فضياعه ضياع العمر، وإتلافه إتلاف لأنفَس الثروات.

وعلى الرغم من كثرة الآيات الكريمة التي أقسم الله تعالى بها بالزمن؛ كالفجر والعصر والليل والضحى... وحث على استثمار كل لحظة من العمر في العمل: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ﴾ [الشرح: ٧]، وكثرة الأحاديث الشريفة التي تحث على اغتنام سويعات العمر؛ كقوله ﷺ: (نعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس: الصحةُ والفراغ)[٣]، وقوله ﷺ: (لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس، عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه...)[٤] إلى آخر الحديث، فإن تضييع الوقت يعد من أهم العوائق والمثبطات التي تشل عملية التغيير.

وقد حرص السلف الصالح على اغتنام أي لحظة من أوقاتهم للاشتغال بعلم أو عمل، حتى قال عنهم الحسن البصري: «أدركتُ أقوامًا كان أحدهم أشحَّ على عمره منه على دِرهمه»[٥].

وعلى الرغم من كل هذه النصوص التي تؤكد على أهمية الوقت، فإن المجتمعات الإسلامية تُعد نماذج مثالية لإتلاف الوقت وإهداره في جميع الحقول وعلى جميع المستويات.

ولعلّ من الأسباب الرئيسة في هذه الظاهرة المحزنة أن طبيعة الوظائف التي يشتغل بها أكثر الناس في البلاد الإسلامية ذات صلة بالري والزراعة والحرف اليدوية والتجارة، وليس فيها ما يعوّد الإنسان على الحرص على الوقت والالتزام به[٦].

هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن المسلمين المعاصرين غفلوا عما خلقوا له من القيام بأداء دورهم الرسالي في الحياة، وعمارة الأرض وفق المنهاج الذي ارتضاه الله عز وجل لهم، وأهدروا الأعمار فيما لا ينبغي، فلو سئل أولئك الذين يجلسون الساعات الطوال في المقاهي –وما أكثرهم– عما يعملون أو ينتظرون لأجابوا بكل بساطة أنهم يقتلون الوقت، وما درى المساكين أن الوقت هو أعمارهم التي يُسألون عنها يوم القيامة.

بينما الإنسان في البلدان الصناعية يجري وكأنه يتسابق مع الزمن، بل يعصر كل لحظة فيه، ويستثمرها بوعي شديد وتصميم[٧]، مع أن المسلمين أولى بهذا لأنهم خير أمة أخرجت للناس.

> **إنَّ أيَّ أمّة لا تتهيّأ إرادتُها للعمل والإبداع عن طريق شحذ القوة الداخلية الروحية والعاطفية والنفسية والعقلية إلا وكانت ذات قدرة هائلة**

(١) المرجع السابق، ص (٥٢).
(٢) سير أعلام النبلاء، للذهبي (٥٨٥/٤).
(٣) أخرجه البخاري (٦٤١٢).
(٤) أخرجه الترمذي (٢٤١٦).
(٥) ينظر: شرح السنة، للبغوي (٢٢٥/١٤).
(٦) نحو فهم أعمق للواقع الإسلامي، لعبد الكريم بكار، ص (٤٧).
(٧) في التفسير الإسلامي للتاريخ، لنعمان السامرائي، ص (٤٩).

من موانع التغيير

وعلى العموم فإن بين العلل الكبيرة التي تعوق التغيير: عدم المعرفة بقيمة الوقت؛ لأن المجتمع الذي يملك زمانًا ولا يعرف عنه شيئًا، فهو لا يستثمره في شيء.

> **من بين العلل الكبيرة التي تعوق التغيير: عدم المعرفة بقيمة الوقت؛ لأن المجتمع الذي يملك زمانًا ولا يعرف عنه شيئًا، فهو يهدره ولا يستثمره في شيء**

وخلاصة القول:

إنَّ التغيير المشار إليه في الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] يمتد إلى سائر المكوّنات النفسية والاجتماعية لأي أمة، ويصدق على كافة مجالات الحياة وشبكة العلاقات الاجتماعية، ويمنح الإرادة الإنسانية إمكانية معرفة شروط وموانع التغيير، والقدرة على إدراك حقائق النفس الداخلية وطبيعة المواجهة مع حزب الشيطان، وهذه القدرة مفتاح كل تغيير.

وبتدبّر هذه الآية الكريمة وتقصّي أبعادها وسبر آثارها في النفس والمجتمع، يمكن التوصل إلى إقامة قواعد لمنهج علم اجتماعي قرآني يُتحدى به علم النفس الاجتماعي الغربي، الذي قطع أشواطًا بعيدة في هذا المضمار، ويُتوصل به إلى تقنين سنن العمران، وكيفية تحريك الطاقات، وتفجير المواهب الإنسانية على المستوى النفسي، ثم الاجتماعي، ثم العمراني «الحضاري».

ذلك أنَّ أيَّ أمّة لا تتهيّأ إرادتُها للعمل والإبداع عن طريق شحذ القوة الداخلية الروحية والعاطفية والنفسية والعقلية إلا وكانت ذات قدرة هائلة لامتلاك رصيد استراتيجي ضخم في مجال المبادرات العمرانية[1].

(١) سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، لمحمد هيشور، ص (٢٧٥).

ستُّ وقفات منهجية في الخلاف السائغ

د.معن عبد القادر (*)

الخلاف الفقهي من الموضوعات الساخنة في مجتمعاتنا، خاصة مع التدفق المعلوماتي الذي عرّض عامة الناس للاطلاع على المسائل الخلافية خارج ما يعرفون من مذهبهم أو علماء بلدهم. مما أوقعهم في الحيرة والارتباك: ماذا يفعلون؟ ومن يتبعون؟ ومع التسليم بأن هناك دائرة واسعة من الخلاف السائغ، إلا أنه ارتبط به كثير من المغالطات والمفاهيم الخاطئة، التي تميل إلى التمييع حيناً وإلى التشديد حيناً.

هذا المقال تلخيص لحوار واقعي مع بعض الجلساء لتجلية مسائل عملية عن الخلاف السائغ، وكيفية التعامل معه دون إفراط ولا تفريط.

حضرت حوارًا فقهيًا بين اثنين يعملان في جمعية دعوية واحدة، يقول الأول لصاحبه: هذه المسألة الخلاف فيها سائغ، فلماذا لا نأخذ بالقول الأيسر؟ فقال الثاني: بل المسألة قطعية في التحريم والخلاف فيها غير سائغ.

وبحسب ما أعلم من المسألة محلِّ النقاش فهي من الخلاف السائغ، لكن وجدت في كلام كلا الصديقين غبشًا في الموقف من الخلاف السائغ، فكان مني هذا الحديث معهما.

ياصاحبَي:

يمكن أن نُميز الخلاف السائغ عن غير السائغ بأنه قولٌ صادر عمَّن له أهلية للاجتهاد، ويكون في مسألةٍ ليس فيها دليلٌ قطعي الثبوت قطعي الدلالة، فيكون سبب الخلاف راجعًا إلى عدم الدليل في المسألة، أو الخلاف في ثبوت الدليل، أو في دلالته، أو في تنزيله على الواقع، أو في وجود معارض له فاختلفت طرائق الجمع أو الترجيح، وألا يكون الرأي المخالف قولاً تفرد به العالم فعده علماء عصره شذوذًا[1].

ولنا مع الموقف العملي من هذا النوع من الخلاف وقفات:

(*) أكاديمي وكاتب في قضايا التربية والحوار والفكر.

(1) يراجع كتيب: لكيلا يكون الخلاف معولًا للهدم، للكاتب.

الحكم على مسألةٍ ما أنها من الخلاف السائغ لا يعني التسوية بين قوة الأقوال فيها، فضلاً عن الحكم بصحة الأقوال جميعًا

الوقفة الأولى:

الحكم على مسألةٍ ما أنها من الخلاف السائغ لا يعني التسوية بين قوة الأقوال فيها، فضلاً عن الحكم بصحة الأقوال جميعًا. أي إن تصنيف مسألةٍ ما أنها من الخلاف السائغ لا يمنع أن يقال معه: والراجح من الأقوال كذا، بل لا يمنع أن يقال: والصحيح من الأقوال كذا. وهذه العبارات كثيرةٌ في أقوال العلماء ومناقشاتهم للمسائل، وأظهر من أن نُكثر فيها النقول والاستشهادات.

ونستأنس لهذا بالقول السائر المشهور في الخلاف «قولي صوابٌ يحتمل الخطأ، وقول غيري خطأ يحتمل الصواب»[1]، والشاهد فيه إطلاق لفظ الصواب والخطأ على الأقوال الخلافية، ولا شكَّ أنَّ هذا في الخلاف السائغ دون غيره، فلا يصح أن يضع المرء احتمالاً لخطأ قوله وصواب قول مخالفه في مسألة قطعية في الدين.

فإن قيل: إذا حكمنا بصحة أحد الأقوال، فماذا بقي إذن من تطبيقات التسليم بأنَّ المسألة من الخلاف السائغ؟ فالجواب أنه بقي من ذلك عدة صور منها:

- لا يُنكر على من ذهب -باجتهاد أو تقليد- الى أحد الأقوال، أي لا يعد قوله ضلالاً ومنكرًا شرعيًا يجب إنكاره، ولكن لا مانع أن يُنصح ويعلم.
- لا يَنعت أصحابُ قولٍ أصحابَ قول آخر بالتَّشدد أو التمييع أو البدعة أو الفسق.
- تصحيح الآثار المترتبة على فعل المخالف، فمن رأى أن النوم ناقض للوضوء مطلقًا، يسيره وكثيره، قاعدًا أو مضجعًا، لا يقول للمخالف الذي لا يراه ناقضًا -وقد قام لصلاته بعد إغفاءة وهو متمكن من الجلوس-: أعد صلاتك فإنها باطلة.
- قد يفتي العالم بالقول الآخر إذا تعذر العمل بقوله، أو ترتب على قوله -بسبب الزمان أو المكان أو الظرف- عنت كبير غير معتاد.
- استحباب الأخذ بأحوط القولين إن كان الخلاف قويًا لم يتبين فيه رجحان أحدهما على الآخر، أو كان الترجيح طفيفًا.

وهذه الصور كلها إنما هي في الخلاف السائغ دون غيره.

طريق المسلم إلى تعلُّم أمرِ دينه محصور في الاجتهاد أو الاتباع أو التقليد بالنظر إلى ما حصّل من العلم الشرعي، وليس في شيء منها: الانتقاء!

الوقفة الثانية:

يترتب على الوقفة الأولى أنه ليس للمسلم أن ينتقي ما يشتهي من الأقوال الخلافية بحجة أن الخلاف فيها سائغ. يا صاحبَي: بالله عليكم من يصحح هذه الصورة: أن يأتي مستفت إلى مفت فيقول: يا شيخ اسرد لي أقوال العلماء والمذاهب في هذه المسألة لأنتقي منها ما يعجبني، مادام الخلاف فيها سائغًا!

ولأزيد هذه المسألة وضوحًا أقول: المسلمون -من حيث تمكُّنهم من علوم الشريعة واستنباط الأحكام من الأدلة- صنفان: علماء، وعامّة. وقد حدَّدت الشريعة لكلِّ صنف منهم منهجَه في تلقي الدين، لا يُقبل منه سواه. أما العالم فيجب عليه الاجتهاد بما آتاه الله من قدرةٍ على النظر في الأدلة، وأما العامِّي فعليه سؤال أهل العلم ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، (ألا سألوا إذْ لم يعلموا)[2]. ولا يجوز للعالم أن يقلِّد غيره -إلا في أحوال استثنائية - ولا يجوز للعامي أن يجتهد البتة.

وإن شئت فاجعل صنفًا ثالثًا هم فوق العامة ودون العلماء، وقد اصطُلح على تسميتهم بطلبة العلم، وهم قوم عندهم حظٌّ من العلم والفهم -من خلال دراستهم الجامعية أو لزومهم مجالس العلماء- فارتفعوا عن مقاربة رُتبة العوام، لكنهم لم يبلغوا مبلغ المجتهدين. فهؤلاء وإن كان يجوز لهم

(١) تنسب هذه المقولة إلى الإمام الشافعي رحمه الله، وإن كان ثبوتها عنه محل نظر.
(٢) أخرجه أبو داود (٣٣٦).

كيف يأخذ المسلمون دينهم؟

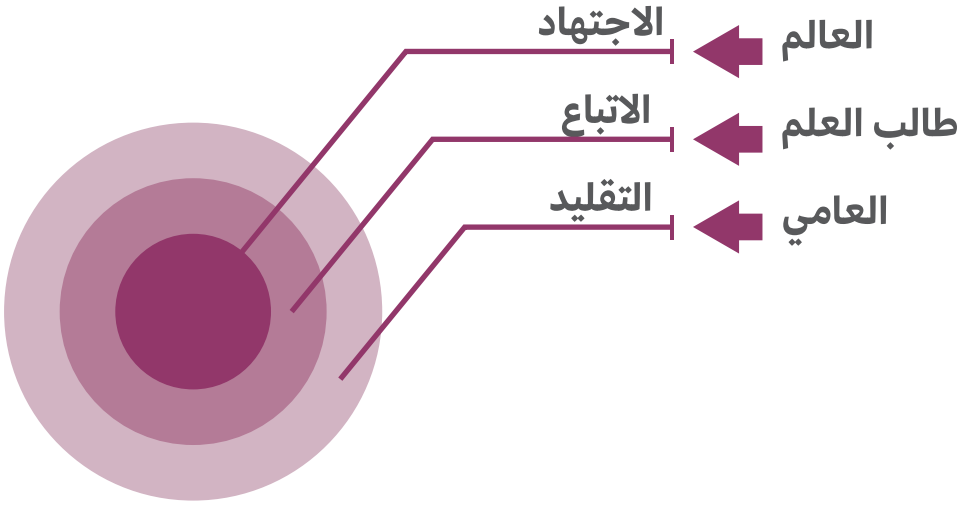

التقليد، لكنهم يُحرَّضون على النظر في أدلة العلماء واستنباطاتهم ومنزعهم من الأدلة، وردودهم على الأقوال الأخرى، بما يعينهم على الترجيح بين الأقوال وتبني قول منها عن بصيرة، وهي المرتبة التي يسمِّيها بعض المعاصرين: الاتّباع، (وهي فوق التقليد لما فيها من تتبع الأدلة، ودون الاجتهاد لأنها لا تخرج عن أقوال المجتهدين).

والخلاصة أنَّ طريق المسلم إلى تعلم أمر دينه والعمل به محصور في الاجتهاد أو الاتبَاع أو التقليد، بالنظر إلى ما حصّل من العلم الشرعي، وليس في شيء منها: الانتقاء!

ولنمثل لذلك بالمثال السابق:

نقضُ النوم اليسير أو نوم الجالس المتمكِّن للوضوء، فيه قولان. أما المجتهد فينظر في الأدلة ويأخذ بما دلَّت عليه عنده، ولا يجوز له إلا ذلك. وأما العامي فيتَّجه إلى من يثق بعلمه ودينه من العلماء فيستفتيه، ثم يعمل بما أفتاه به. وأما طالب العلم فله أن ينظر في أدلة الفريقين، وجوابِ كل فريق على أدلة الفريق الآخر، ثم يتبع ما يترجح لديه، أو يقلِّد كالعامي. وليس لأحد منهم أن يحتج بالخلاف فيقول، أنا بالخيار إن شئت توضأت وإن شئت تركت!

وقس على هذا كلَّ مسائل الخلاف السائغ.

> **تتبُّع الرخص يعني تتبُّع الأسهل من الأقوال الخلافية في كل مسألة. وهذا مسلك يجعل صاحبَه على خطر؛ لأنه في الحقيقة متَّبع لهواه**

الوقفة الثالثة:

سألني صاحبي الأول: لكن أليس من حقِّ الإنسان، بل المستحبِّ له، أن يأخذ بالرخصة ويختار أيسر الأقوال، كما يرشد إليه قول النبي ﷺ: (إنَّ الله يحب أن تُؤتَى رخصه كما يكره أن تُؤتى معصيته)[1]، وكما جاء في قول عائشة رضي الله عنها: «ما خُيِّرَ النبي ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يأثم»[2]؟

فأجبته: إن هذين الحديثين لا علاقة لهما بخلاف العلماء، بل هما واردان في رخصة الله تعالى

(١) أخرجه أحمد (٥٨٦٦).
(٢) أخرجه البخاري (٦٧٨٦) ومسلم (٢٣٢٧) واللفظ للبخاري.

لعباده وتيسيره عليهم في بعض الأحكام والمواطن رحمة بهم.

مثلا: رخّص الله للمريض الذي يخشى إن مسَّ الماء أن يزيد مرضُه أو يتأخَّر بُرؤه أن يتيمم، وللمقاتل الصائم إذا لقي العدو أن يفطر، وللابس الخُف على طهارةٍ أن يمسح عليه.

«فلا ينبغي للعبد أن يأنف عن قَبولِ ما أباحَه الشرعُ ووَسَّع فيه، ويستنكف عن أن يترخَّص في خاصة نفسه حين الحاجة إلى مثل هذه الرخص بحدودها الشرعية؛ فهذا ممَّا يكرَهه الله عزَّ وجلَّ؛ كما يكرَه أن يتعدَّى الإنسانُ حدودَ الله فيأتي المعصية؛ وفي هذا تأكيدٌ لمشروعية الرخص، وحث على قَبولها والتيسير بها، وعدم التعنت والإشقاق بتركها»[1].

وبهذا يعرف أن نهي بعض أهل العلم عن تتبُّع الرخص، لا يقصد به رُخصة الله لعباده، ولكنه مصطلح خاص أرادوا به تتبع الأسهل من الأقوال الخلافية في كل مسألة. وهذا الذي يجعل صاحبَه على خطر؛ لأنه في الحقيقة متَّبع لهواه.

أما قول عائشة ﵂، فهو وصفٌ لطبع النبي ﷺ وشأنه في أمور دنياه ومعاشه، في ملبسه ومسكنه وسفره ومعاملاته، فإنه يختار ما فيه يسرٌ ما لم يُنه عنه، وليس هذا شأنه في عباداته، بل إنه في العبادة يختار ما هو أرضى لله وأعظم أجرًا، ويحثُّ أمته على ذلك دون إلزام، بل ويوجههم إلى أن يحتسبوا المشقة الملازمة للعمل، كما قال لعائشة ﵂ (ولكنها على قدر نَصَبِك)[2]. ومن العجب أن يُنزَّل قول عائشة ﵂ (إلا اختار أيسرهما) على المسائل الخلافية، كيف يكون هناك قول بالتحريم –مثلاً– وقول بالجواز ثم نقول للمسلم: أنت مخير بين القولين؟ من ذا الذي خيره؟!

> **لا نغلو بنفي السَّوْغِ في الخلاف –وهو سائغ بحسب القواعد– ظنًا منا أن هذا يحفظ الدين من المتساهلين والمترخّصين**

الوقفة الرابعة:

ولما خشي بعض الغيورين على الدين من أن تُفهم عبارة «في المسألة خلاف سائغ» أنها تصحيح لكل الأقوال (وهو ما بيّنا خطأه في الوقفة الأولى)، أو تُفهم أنها ترخيص للناس ليأخذوا بأي الأقوال شاؤوا (وهو ما بينا خطأه في الوقفة الثانية)، عمدوا إلى إخراج بعض المسائل الخلافية السائغة من دائرة الخلاف السائغ، وجعلوا كل قول نشؤوا عليه ورأوا علماء بلدهم الثقات ملتفِّين حوله متَّفقين عليه، قولاً وحيدًا لا تسوغُ مخالفته، يفعلون ذلك دون معرفة حُجَّة القول الآخر، أو مراعاة الضوابط والمعايير العلمية في تمييز الخلاف السائغ عن غيره. وإذا عدّ هؤلاء أمثلةً للخلاف السائغ لم يخرجوا عن بعض مسائل الطهارة والهيئات التفصيلية في الصلاة أو الحج.

وهؤلاء الغيورون لا يُنكر عليهم تبنيهم لقول من الأقوال الخلافية، ونصره على غيره، وتعليمه للناس، والإفتاء به، فهذا لا إشكال فيه – كما بيّناه في الوقفة الأولى- بل لا يلزمهم أن يذكروا الخلاف في المسألة لمن يستفتيهم عنها، ولكن يؤخذ عليهم إنكارهم أن تكون المسألة من الخلاف السائغ، وتشنيعُهم على مخالفيهم وكأنَّهم خالفوا في أمر قطعي، ولا حُجة لهم في ذلك إلا إلْفُهم لاختيارات معينة دون غيرها. وربما فرّقوا بين مسألتين فعدُّوا هذه من السائغ وهذه من غير السائغ، وهما متشابهتان تمامًا في طرائق الاستدلال.

وهذا –أي عدّ ما تنطبق عليه أوصاف الخلاف السائغ غيرَ سائغ– مسلكٌ خطير، لأنَّ فيه تضليلًا لأقوال معتبرة، وضيقَ عطن في التعامل مع الخلاف. ولعلَّ بعض من يفعله لهُ في ذلك نيةٌ حسنةٌ من حملِ الناس على العزائم، وسدِّ أبواب تتبُّع الرخَص، لكن نيته الحسنة لا تبرر فعله هذا. فما اختلف فيه أهل العلم بسبب من أسباب الخلاف المعتبرة ولم يكن من قبيل الشذوذ هو خلاف سائغ، والانتصار لقولٍ دون غيره لا يُلغي كون الخلاف فيه سائغًا، بل يبقى خلافًا سائغًا تسري عليه صور مراعاة الخلاف السائغ التي سلف ذكرها في نهاية الوقفة الأولى. وللأسف فإن كثيرًا ممن ينظّرون للخلاف السائغ ببراعة يَسقُطون عند تطبيقه في الواقع.

(١) موقع: الإسلام سؤال وجواب، السؤال رقم (٢٠٢٢٧٩).
(٢) أخرجه البخاري (١٧٨٧) ومسلم (١٢١١) واللفظ له، ومعناه: ثوابُ عُمْرَتِكِ على قدر تعبك.

الصواب والخطأ في التعامل مع الخلاف السائغ

في الخلاف السائغ يلزمك أن تعتقد أن جميع الأقوال صحيحة	✗
لك أن تنتقي من الأقوال الخلافية ما يناسبك	✗
من مراعاة الخلاف السائغ أن تصحح فعل المخالف لنفسه	✓
اترك صاحب القول المخالف وشأنه، لا تنصحه ولا تحاوره	✗
لمنع الناس من تتبع الرخص: نغلق باب الخلاف السائغ ونفرض قولاً واحداً	✗
تصنيف المسألة إن كان من الخلاف السائغ أو غير السائغ من شأن العلماء فقط	✓

والخلاصة أن الواجب علينا أن نبيِّن للناس أن الخلاف السائغ لا يعطيكم العذر بانتقاء ما تشاؤون من الأقوال، وأنَّ المسلمَ مكلَّفٌ بأن ينشد الحق، سواء كانت المسألة من الخلاف السائغ أو من غيره، ثم الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره، لكننا لا نغلو بنفي السَّوْغ في الخلاف – وهو سائغ بحسب القواعد- ظنًا منا أن هذا يحفظ الدين من المتساهلين والمترخصين.

> **تصنيف الخلاف إلى سائغ وغير سائغ ليس من شأن العامة. فالعامي فرضُه أن يسأل أهل العلم فيما يُشكل عليه، ولا يلزمه أن يعلم إن كان في المسألة خلاف ولا نوع الخلاف**

الوقفة الخامسة:

قال لي صاحبي الثاني: ألا يمكن أن يختلف الناس فيما إذا كان الخلاف في المسألة سائغًا أو غير سائغ؟

قلت: كما يقع الخلاف السائغ في مسائل من الدين، فإنه يقع أيضًا في تصنيف الخلاف في المسألة إلى سائغ وغير سائغ. فمع أنَّ ما ذكرناه من ضبط ووصف للخلاف السائغ يعين على توضيح نوع الخلاف في كثير من المسائل، لكن تبقى هناك دائرة يقع فيها الخلاف: هل الخلاف فيها من السائغ أو غير السائغ؟ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فالقطعُ والظَّنُّ يكونُ بحسب ما وصل إلى الإنسان من الأدلة وبحسب قدرته على الاستدلال، والناس يختلفون في هذا وهذا، فكونُ المسألة قطعية أو ظنية ليس هو صفة ملازمة للقول المُتَنَازَع فيه حتى يُقال: كلُّ مَن خالفَهُ قد خالَف القَطعيَّ، بل هو صِفةٌ لحالِ النَّاظِرِ المُستَدِلِ المُعتَقِد، وهذا مما يختلف فيه النَّاس»[1].

إلا أن هذا الملمح ينبغي ألا يُشوِّش على عامة المسلمين موقفهم من الخلاف، إذ إن تصنيف الخلاف إلى سائغ وغير سائغ ليس من شأن العامة. فالعامي فرضُه أن يسأل أهل العلم فيما يُشكل عليه، ولا يلزمه أن يعلم إن كان في المسألة خلاف أصلاً، فضلاً عن معرفة نوع الخلاف.

(١) منهاج السنة النبوية، لابن تيمية (٥/٩١).

وتعليم الناس مقدِّماتٍ عن الخلاف وأنواعه وصوره، وأسباب اختلاف العلماء وما أشبه من المسائل إنما يُراد منه الوعي العام، ومعرفة سعة الشريعة، ورفع الملام عن الأئمة الأعلام فيما اختلفوا فيه، والتحذير من الفُرقة، وليس من مقاصد تعلم هذه المسائل أن ينصِّب العامي نفسَه منصب الحاكم على المسائل والناس.

ونقرب ذلك بعلوم مصطلح الحديث، وشروط صحة الحديث، نُقربها لعموم المسلمين ليروا إتقان أهل العلم في حفظ سنة النبي ﷺ والاحتراز من دخول الكذب والوهم في الحديث، لا لكي يصبحوا محدّثين يصحّحون ويضعفون (إلا إن انقطعوا لهذا الأمر وتخصصوا فيه).

وإذا اتبع المرء هواه في مسألةٍ فهو آثم، سواءً اتفق بعد ذلك أنَّ المسألة خلافيةً أو غير خلافية. فمن كشفتْ وجهها اتباعًا لهواها، أو تتبعًا للرخص، لا اتباعًا لعالم تثق بعلمه ودينه، فهي آثمة، ولا يشفع لها أنَّ المسألة من الخلاف السائغ، وهي في ذلك على نفسها بصيرة.

إذا اتَّبع المرء هواه في مسألةٍ فهو آثم، سواءً اتفق بعد ذلك أنَّ المسألة خلافية أو غير خلافية

لذلك نقول: إن احتجَّ رجل من عامة المسلمين فيما ذهب إليه بأنَّ المسألة من الخلاف السائغ، نقول له: ما شأنك أنت والخلاف السائغ؟ هل سألت في هذا مَن تثق بعلمه ودينه، وترضى أن تقلده في دينك؟ فإن فعلت فقل: أفتاني بهذا فلان وحسبك، فهذه حجَّتك التي تُنجيك عند الله، ولا تخُض فيما لا تحسن. هل إذا شعرت بارتفاع ضغط الدم – مثلاً- تذهب إلى الصيدلية وتطلب من الصيدلي أن يعطيك أحد أدوية الضغط التي على الرف؟! هل ترضى بهذا لبدنك؟ أم إنك لا تطمئن إلا أن تراجع طبيبًا مختصًا وتشتري الدواء الذي وصفه لك بعينه؟ أفيكون ديننا أهون علينا من أبداننا؟

إذا تبنت المؤسسة اختيارًا فقهيًا في عملها بعد التحقيق وسؤال أهل العلم، لزم كلَ منسوبيها أن يعملوا وُفق اختيار المؤسسة لأنه من مقتضيات سير العمل وإن بقوا على قناعتهم العلمية بخلاف ذلك

الوقفة السادسة:

ثم توجَّهت لصاحبَي قائلاً: أما عن المؤسسة التي تعملان فيها، فإن المؤسسات -كما الأفراد- تعترضها مسائل خلافية، كحكم بعض التعاملات المالية، أو بعض صور اجتماع الرجال والنساء، أو القدر الجائز من ظهور المرأة صوتًا وصورة في المنتجات الإعلامية، أو استخدام المؤثرات الصوتية التي تشبه أثر المعازف، أو بعض صور التعامل مع غير المسلمين أو غير ذلك. والواجب على أصحاب القرار في المؤسسة أن يجتهدوا في البحث عن الحق في هذه المسائل والتزامه، وليس لأحدٍ أن ينتقدها فيقول: لماذا تُلزم المؤسسة نفسها بهذا القول وفي المسألة أقوال أخرى أيسر لها؟

إنَّ المسألة دِين، والقائمون على هذه المؤسسات -من مُلّاكها أو مجالس إدارتها- رعاةٌ عليها، والراعي مسؤول عن رعيته. فكما قلنا في الفرد نقول في المؤسسة، ليس لهم أن ينظروا في الأقوال الخلافية فيختاروا منها ما يخدم مصلحتهم دون تحقيق (إن كان فيهم من أهل العلم) أو حجة من أهل العلم الثقات.

فإذا تبنت المؤسسة اختيارًا فقهيًا في عملها بعد التحقيق وسؤال أهل العلم، لزم كلَ منسوبيها أن يطرحوا الخلاف جانبًا، وأن يعملوا وُفق اختيار المؤسسة لأنه من مقتضيات سير العمل[1]، فإن كان مما يسعُ الفرد الالتزام به عملاً فيجب أن يلتزم به، ويبقى على قناعته العلمية، وإن كان يرى أنه لا يسعه ذلك شرعًا (كأن يرى أن الأمر محرم ومؤسسته تبنت القول بالجواز) فعليه أن يستعفي من فعله إن كان هو المباشر لهذا العمل، لأنه لا يجوز له أن يباشر ما يعتقده حرامًا ولو كان قولاً سائغًا.

شكرني صاحباي، وانفض المجلس. وأنا أشكرهما أنهما كانا سببًا في كتابة هذا المقال.

(١) وهذا في المسائل التي تمس عمل المؤسسة خاصة، أما ما لا علاقة له بعمل المؤسسة، فليس للمؤسسات أن تلزم منسوبيها باختيارات فقهية معينة.

تأصيل

ما سرُّ رواية بعض الصحابة للكثير من الأحاديث؟

أ. شمس الدين درمش (*)

بين الحين والحين تطالعنا أصوات نشاز تتطاول على قامات ملأت الأرض عدلاً ورحمة، بالتنقص من ديانتهم وأمانتهم تارة، وبالتشكيك في عدالتهم وصدقهم تارة أخرى، بادِّعاء الحرص على الدين، وتنقيته وتصفيته من الدخيل عليه، وحقيقة فعلهم تشكيك الناس في أسس الدين وأصوله، مما يؤدي لهدمه وتضييعه، لكن الدين محفوظ بحفظ الله له، ومن وسائل ذلك أن هيّأ له حَمَلَةً كرامًا أمناء، شهد لهم رب العالمين ورسوله الأمين، لا يضرهم شنآن جاهل ولا طعن حقود.

الصحابة الكرامُ هم التلاميذ النجباء للنبي ﷺ، تربوا على يده، ونهلوا من مورده، وأحبوه حبًا فاق حبهم لأنفسهم وأولادهم وأموالهم، فأحاطوا به إحاطة السوار بالمعصم، لا يُحِدُّون إليه النظر، ولا يرفعون عنده الصوت، ويكفيه أن يشير إلى أمرٍ فيُفعل، إذا استنفرهم للقتال نفروا، وإذا تحركت شفتاه أصغَوا، فكانوا خير ورثةٍ لخير مُعلم، وحملوا رسالة الإسلام إلى شعوب الأرض، بعد أن شهدوا التنزيل وفهموا الشريعة، وعرفوا مراد الله من خلقه.

ولا ريب أن الفضل -بعد الله- ينسب إليهم في وصول السنة النبوية إلينا، فهم الذين سخَّروا جهدهم ووقتهم لصحبة النبي ﷺ، فحفظوا سُنته، ونقلوها إلى الأجيال التالية غضَّةً طرية، وربوا مِن بعدِهم رجالاً تأسَّوا بهم، واهتدوا بهديهم ولا زال علمهم يُتوارث عصرًا بعد عصر وجيلاً بعد جيل.

وهذا الفضل لا يجاريه ولا يوازيه فضل، ولا يمكن لأي إنسان أتى بعدهم أن يفوقهم في الفضل؛ فكلُّ حسنة يعمل بها من بعدهم فلهم منها نصيب، بل هو نوع اصطفاءٍ لهم، حتى على من سبقهم من الأمم، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (إنَّ الله نَظَر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد ﷺ خيرَ قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد، فوجد قلوبَ أصحابه خيرَ قلوب العباد، فجعلهم وزراءَ نَبيِّه، يُقاتلون على دينه)[1].

(*) أمين سر رابطة الأدب الإسلامي العالمية، كاتب وأديب، له عدة كتابات نقدية وأدبية

(١) أخرجه أحمد (٣٦٠٠).

الاسم	مهاجري أو أنصاري	عام ولادته	مدة صحبته مع النبي في المدينة	كم سنة عاش بعد وفاة النبي	عام وفاته	عدد الأحاديث المروية	عدد الرواة عنه
أبو هريرة	مهاجري	٢١ ق.هـ	٤ أعوام (٢٨-٣٢)	٤٩	٥٩هـ	٥٣٧٤	٨٠٠
عبد الله بن عمر	مهاجري	١٠ ق.هـ	١٠ أعوام (١٠-٢٠)	٦٣	٧٣هـ	٢٦٣٠	٢٥٠
أنس بن مالك	أنصاري	١٠ ق.هـ	١٠ أعوام (١٠-٢٠)	٨٣	٩٣هـ	٢٢٨٦	٣٠٠
عائشة أم المؤمنين	مهاجرة	٨ ق.هـ	٩ أعوام (٩-١٨)	٤٨	٥٨هـ	٢٢١٠	٣٥٠
عبد الله بن عباس	مهاجري	٣ ق.هـ	٣ أعوام (١١-١٣)	٥٨	٦٨هـ	١٦٦٠	٢٩٧
جابر بن عبد الله	أنصاري	٢٠ ق.هـ	١٠ أعوام (٢٠-٣٠)	٦٤	٧٤هـ	١٥٤٠	١٥٠
أبو سعيد الخدري	أنصاري	١٠ ق.هـ	١٠ أعوام (١٠-٢٠)	٦٤	٧٤هـ	١١٧٠	١٠٠

الطعن في المكثرين من الصحابة:

للشيطان جنود آلوا على أنفسهم أن يحاربوا هذا الدين كما أقسم الشيطان بعزة الله ليغوينَّ بني آدم أجمعين، فلم يألوا جهدًا في حرب دعوة الإسلام بشتى الوسائل والسبل، وبكل ما أوتوا من قوة، وأجلبوا بخيلهم ورجلهم على هذه الدعوة، فلما عجزوا عن الطعن في كتاب الله وفي شخص النبي ﷺ، انتقلوا إلى الطعن في عدالة الصحابة الكرام رضي الله عنهم، وقصدهم في ذلك هدم بنيان الشريعة بإسقاط حملتها ورواتها.

من أشهر الطعونات التي تعرَّض لها الصحابة الكرام: تلك التي تناولت رُواة الحديث منهم، وعلى رأسها طرح التساؤلات عن تصدُّر أبي هريرة رضي الله عنه للصحابة في كثرة ما روى، مع أنَّه قَدِم المدينة عام خيبر أي (٧ هجرية)، ومثل هذه الطعون تنالُ من صحابة آخرين من المكثرين من الرواية، مثل عائشة وابن عباس رضي الله عنهم، وهم ليسوا في مرتبة كبار الصحابة كأبي بكر وعمر! وتفترض هذه الطعون أنَّ المدَّة التي قضاها هؤلاء الرواة مع النبي ﷺ لا تكفي لسماع القدر الذي رووه من جهة، ومن جهةٍ أخرى تُقارن هذه الطعون بين مرويات المكثرين ومرويات السابقين من الصحابة، وتتساءل: كيف فاق هؤلاء في الرواية أبا بكرٍ وعمر وعثمان وعليًا والزبير وطلحة وابن مسعود وهم الذي سبقوا في الإسلام والصحبة والسماع من النبي ﷺ؟

ومن المهم ذكر أن بعض هذه الطعون بدأ في عهد الصحابة الكرام، ثم تولى كبرها المنافقون والفرق المنحرفة كالخوارج والمعتزلة والرافضة والزنادقة وغيرهم، حتى جاء المستشرقون في العصر الحالي ونبشوها وأعادوا إنتاجها[1]، فتلقَّفها عدد من «العقلانيين» والعلمانيين، وقد نشط مؤخرًا فريقٌ جديدٌ مراهنين على ابتعاد الأجيال الناشئة عن معين الوحي ومنهل العلم، ولذلك وجب تكرار الردِّ عليهم وبيان الحق الذي تتابع أهل السنة منذ القدم على توضيحه جيلاً بعد جيل، وعصرًا بعد عصر.

لما عجز أهل الباطل عن الطعن في كتاب الله وفي شخص النبي ﷺ، انتقلوا إلى الطعن في عدالة الصحابة الكرام رضي الله عنهم، وقصدهم في ذلك هدم بنيان الشريعة بإسقاط حملتها ورواتها

دراسة موجزة للمكثرين السبعة:

في الجدول أعلاه دراسة موجزة لعدد روايات المكثرين السبعة من الصحابة، حيث اصطلحَ العلماءُ على وصف من روى أكثرَ من ألف حديثٍ من الصحابة بأنه: من المكثرين[2]، قال الناظم:

سَبْعٌ مِنَ الصَّحْبِ فوقَ الألفِ قد نقَلُوا
مِنَ الحديثِ عَنِ المُختارِ خَيرِ مُضَر

أبو هـريـرةَ، سـعدٌ، جـابرٌ، أنـسٌ
صدِّيقةٌ وابن عباسٍ كذا ابن عُمَر

(١) على رأسهم المستشرق اليهودي المجري جولد تسيهر.

(٢) قال الشيخ أحمد شاكر: «وقد ذكر العلماء عدد أحاديث كل واحد منهم، واتَّبعوا في العد ما ذكره ابن الجوزي في تلقيح فهوم أهل الأثر،.. وقد اعتمد في عده على ما وقع لكل صحابي في مسند أبي عبد الرحمن بقي بن مَخلد، لأنه أجمع الكتب». الباعث الحثيث، ص (٣٧٤).

قراءة جدول المقارنة بين المكثرين من الصحابة:

- بين المكثرين أربعة من المهاجرين: أبو هريرة، وعبد الله بن عمر، وعائشة أم المؤمنين، وعبدالله بن عباس.
- وثلاثة من الأنصار: أنس بن مالك، وجابر بن عبد الله، وأبو سعيد الخدري.
- خمسة منهم صحبوا الرسول: ٩-١٠ سنوات، هم: عبد الله بن عمر، وعائشة أم المؤمنين، وأنس بن مالك، وجابر بن عبد الله، وأبو سعيد الخدري.
- أبو هريرة صحبَ النبي ٤ سنوات، وابن عباس صحبه ٣ سنوات تقريبًا (٣٠) شهرًا.
- ثلاثة منهم كانت بداية أعمارهم حين صحبوا الرسول (١٠) سنوات، هم: عبد الله بن عمر، وأنس بن مالك، وأبو سعيد الخدري.
- عائشة كان عمرها حين صحبت الرسول ٩ سنوات، وابن عباس ١١ سنة، وجابر ١٩ سنة تقريباً، وأبو هريرة ٢٨ سنة.
- مدة حياتهم بعد رسول الله ﷺ: عائشة أم المؤمنين: (٤٨) سنة، أبو هريرة (٤٩) سنة، ابن عباس (٥٨) سنة، ابن عمر (٦٣) سنة، أبو سعيد الخدري (٦٤) سنة، جابر بن عبد الله (٦٤) سنة، أنس بن مالك (٨٣) سنة.

> **معظم المكثرين من رواية الحديث هم من صغار الصحابة، وهذا هو سنُّ التعلم ووقدة الذهن وسرعة الحفظ، ولكل منهم مزية إضافية أتاحت له خصوصية من خصوصيات التلقي عن النبي ﷺ**

تعليقات وإيضاحات:

حداثة السن:

عندما نتأمل في هذه المعلومات: نجد معظم المكثرين من رواية الحديث هم من صغار الصحابة، وهذا هو سنُّ التعلم ووقدة الذهن وسرعة الحفظ، وكما قيل: (العلم في الصغر كالنقش على الحجر)، ولكل من هؤلاء الصحابة مزية إضافية أتاحت له خصوصية من خصوصيات التلقي عن النبي ﷺ كما سيأتي معنا.

يلاحظ أن أكبرهم سنًا وقت إسلامه هو أبو هريرة (٢٨) سنة، ويليه جابر بن عبد الله الأنصاري (١٩) سنة، أما البقية فقد أسلموا صغارًا بل إنَّ بعضهم لم يُجَزْ في الغزوات الأولى لصغر سنه، كابن عمر وأبي سعيد الخدري وأنس ﷺ أجمعين.

الصحبة في المدينة:

نفهم من حال المكثرين جميعًا أن تلقيهم من رسول الله ﷺ كان في المدينة، حيث استقرار الدولة، ونزول الشرائع وتفرَّغ النبيُّ ﷺ لتعليم أصحابه القرآن الكريم والتشريعات التي كانت تنزل متتالية، وبعد صلح الحديبية وفتح مكة دخل الناس في دين الله أفواجًا؛ فكان المسلمون الجدد يأتون وفودًا إلى الرسول ﷺ في مسجده فيعلمهم الإسلام، ويسألونه فيجيبهم، على مرأى ومسمع من الصحابة الكرام.

أم المؤمنين عائشة ﷺ:

حالة أم المؤمنين عائشة لافتة للنظر، فقد تزوجها النبي ﷺ في السنة الثانية للهجرة، بعد خديجة وسودة ﷺ. ولم يرو أيٌّ من زوجاته قدر ما روت من الأحاديث، وأقرب أمهات المؤمنين في عدد المرويات هي أم سلمة؛ حيث روت (٣٨٧) حديثًا، فما الذي جعل عائشة تروي كل هذا القدر من الأحاديث؟

لا شك أن حداثة سنها هو الجواب المتبادر، لكن هذه الصفة تشاركها فيها نسبيًا صفية التي لم تتجاوز السابعة عشرة من عمرها يوم زواجها بالنبي ﷺ عام ٧هـ، وكذلك حفصة وجويرية اللتين كانتا في العشرين من عمرهما يوم زواجهما، لكن مع ذلك يبقى فارق العمر في صالح عائشة فقد كان عمرها وقت زواجها ٩ سنين.

ولأم المؤمنين عائشة ﷺ ميزات أخرى تتعلّق بالفروق الفردية والبيئية؛ فقد كانت البكر الوحيدة بين أمهات المؤمنين، وهذا يعني زيادة الودّ بينها وبين النبي ﷺ، وقد كانت بالفعل أحبَّ أمهات المؤمنين إلى قلبه، وهذا الودُّ يولِّد من الحوارات والأحاديث ما يزيد عن القدر المعتاد بين الأزواج، وعلاوة على ذلك فقد نشأت في بيت علم وأدب، فأبو بكر ﷺ كان أقدم الصحابة وأكثرهم صحبة للنبي ﷺ وسماعًا منه، وكان إضافةً إلى ذلك عالمًا بالأنساب، وبالشعر، فورثت عائشة من أبيها موهبة العلم.

القرب من النبي ﷺ:

معظم هؤلاء الصحابة ﷺ لديهم سببٌ للقرب من النبي ﷺ، وخصوصيةٌ لا تكاد توجد في غيره، فعائشة زوجته، وأنس خادمه في المدينة، وابن عمر هو أكبر أبناء الفاروق وأخٌ لأم المؤمنين حفصة، وأبو هريرة كان شديد الملازمة للنبي ﷺ حيث كان من أهل الصُفّة مقيمًا في المسجد، وابن عباس ابن عم النبي ﷺ فلمكانته منه كان يشهد معه ما لا يشهد غيره، كما صرح هو بهذا[١]، وكان يبيت أحيانًا عند خالته أم المؤمنين ميمونة، وجابر وأبو سعيد الخدري شهدا مع النبي ﷺ جميع المشاهد بعد وفاة والد كل منهما، ولجابر قرب خاص من النبي ﷺ، فقد كان أبوه قتل يوم أحد وترك له أخوات، فكان جابر يعولهن، وَيُنْفِقُ عَلَيْهِن، وكان النبيُّ ﷺ يبرُّ جابرًا، ويَرحمه، وله معه مواقف متعدِّدة.

دعاء النبي ﷺ بالحفظ والفهم:

اثنان من هؤلاء الرواة دعا لهما الرسول ﷺ دعاءً خاصًا بحفظ العلم والفهم والفقه، وهما: أبو هريرة، وعبد الله بن عباس. فعن أبي هريرة ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، إني سمعت منك حديثًا كثيرًا فأنساه، قال: (ابْسُط رِداءَك، فَبَسَطتُ، فَغَرَفَ بيده فيه، ثم قال: ضُمَّه فَضَمَمتُهُ، فما نسيتُ حديثًا بَعدُ)[٢]. وعن عبد الله بن عباس ﷺ قال: (ضمَّني رسول الله ﷺ إليه وقال: اللهم علِّمهُ الحكمة)، وفي رواية: (علِّمهُ الكتاب)[٣]. وحديث ابن عباس: (أنَّ النبيَّ ﷺ دخل الخَلاء، فَوَضَعتُ له وَضُوءًا. قال: مَن وضَعَ هذا؟ فَأُخبِرَ فقال: اللَّهمَّ فَقِّهْهُ في الدِّين)[٤]. فأبو هريرة وابن عباس تميزا بخصوصية دعاء الرسول لهما بالحفظ والعلم، فكل اعتراض على أبي هريرة ينسحب على ابن عباس أيضًا. ولكن هيهات هيهات!

> **المكثرون من رواية الحديث لم يصلوا إلى هذه المنزلة إلا بسبب حرصهم على العلم؛ وكلٌّ منهم له في سيرته شواهد تُظهر حرصه على التلقي والتشرب من معين النبوة الغزير**

العناية بطلب العلم:

العلم يرفع أهله حتى يبلغ بهم الثريا، وهؤلاء المكثرون لم يصلوا إلى هذه المنزلة إلا بسبب حرصهم على العلم؛ وكلٌّ منهم له في سيرته شواهد تُظهر حرصه على التلقي والتشرُّب من معين النبوة الغزير، وهذه السِّمة أوضح ما تكون في أبي هريرة؛ فقد قال حين استغرب البعض كثرة تحديثه عن النبي ﷺ: «إنَّ إخوتي من المهاجرين كان يشغلهم صَفقٌ بالأسواق، وكنتُ ألزم رسولَ الله ﷺ على مِلء بطني، فأشهدُ إذا غابوا، وأحفظ إذا نسَوا، وكان يشغل إخوتي من الأنصار عملُ أموالِهم، وكنتُ امرأً مسكينًا من مساكين الصُّفَّة أعي حين ينسون»[٥]، ويقصد بذلك اكتفاءه بما يسدُّ حاجته من الطعام والشراب، وعدم انشغاله بطلب الرزق، وفي حرص كل منهم على العلم روايات لا يتسع لها المقام، ويكفي من القلادة ما أحاط بالعنق.

بل بقي حرصهم على تعلم العلم مستمرًا حتى بعد وفاة النبي ﷺ وحتى آخر يوم من أعمارهم؛ فقد جاء أن جابر بن عبد الله رحل في آخر عمره إلى مكة في أحاديث سمعها، ثم انصرف إلى المدينة[٦]. ويروى أنه رحل في حديث القصاص إلى الشام ليسمعه من عبد الله بن أنيس[٧].

الجلوس للفتيا والتعليم بعد وفاة النبي ﷺ:

من المهم عند تناول سير المكثرين الإشارة إلى أنهم تصدَّوا لتعليم الناس ورواية حديث رسول الله ﷺ، وأنهم جنَّدوا أوقاتهم لتعليم الناس وتحديثهم، بينما انشغل غيرهم بأمور الدولة والجهاد والتجارة، ولهم مزية إضافية في كونهم عُمِّروا بعد موت النبي ﷺ سنين طويلة في هذا

(١) ينظر: البخاري (٧٣٢٥)
(٢) أخرجه البخاري (٣٦٤٨).
(٣) أخرجه البخاري (٣٧٥٦).
(٤) أخرجه البخاري (١٤٣).
(٥) أخرجه البخاري (٢٠٤٧).
(٦) سير أعلام النبلاء، للذهبي (١٩١/٣).
(٧) أخرج البخاري تعليقًا قبل حديث (٧٨): «ورحل جابر بن عبد الله مسيرة شهرٍ إلى عبد الله بن أنيس في حديث واحد». ووصله ابن حجر بإسناده في تغليق التعليق (٥/ ٣٥٥).

الشأن حتى سمع منهم الخلق الكثير، فقد روى ابن سعد عن زياد بن مينا، قال: «كان ابن عباس، وابن عمر، وأبو سعيد، وأبو هريرة، وجابر، مع أشباه لهم، يفتون بالمدينة ويحدثون عن رسول الله ﷺ من لدن توفي عثمان إلى أن توفوا. قال: وهؤلاء الخمسة، إليهم صارت الفتوى»[١].

«والذين حُفِظت عنهم الفتوى من الصحابة مئة ونيِّف وثلاثون نفْسًا ما بين رجل وامرأة، وكان المكثرون منهم سبعةً»، وعد منهم: «عائشة أم المؤمنين، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر»[٢].

ولما مات أنس بن مالك قال مُوَرِّق العجلي: «ذهب اليوم نصف العلم» فقيل: وكيف ذاك يا أبا المعتمر؟ فقال: «كان الرجل من أهل الأهواء إذا خالفنا في الحديث عن رسول الله ﷺ، قلنا له: تعال إلى من سمعه منه»[٣].

فقيام هؤلاء المكثرين بالتعليم وتفرغهم له ميَّزهم عن غيرهم من الصحابة الذين ربما سمعوا مثلما سمعوا أو أكثر.

من المسائل المهمة التي يتجاهلها الطاعنون أنَّ مجتمع الصحابة كان مجتمعًا متعلِّمًا، يجلسون للعلم ويتذاكرون أحاديث النبي ﷺ، ويتدارسون القرآن، بل كانوا يتعاهدون مجالس النبوة بالحضور، فإذا تغيبوا عنها سأل بعضهم بعضًا عما جاء فيها من العلم

رواية الصحابة بعضهم عن بعض:

من المسائل المهمة التي يتجاهلها الطاعنون -خصوصًا في أبي هريرة الذي أسلم متأخرًا وروى أكثر من السابقين للإسلام- أنَّ مجتمع الصحابة كان مجتمعًا متعلِّمًا يجلسون للعلم ويتذاكرون أحاديث النبي ﷺ، ويتدارسون القرآن، بل كانوا يتعاهدون مجالس النبوة بالحضور، فإذا تغيبوا عنها سأل بعضهم بعضًا عما جاء فيها من العلم، قال عمر بن الخطاب ﷺ: «كنت أنا وجار لي من الأنصار... نتناوب النزول على رسول الله ﷺ، ينزل يومًا وأنزل يومًا، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك»[٤].

فأبو هريرة وابن عباس اللذان جاءا المدينة في العام السابع والثامن على التوالي، وغيرهم ممن تأخر إسلامهم، رَووا عن رسول الله ﷺ مباشرة، ورَووا عن الصحابة الآخرين عنه، ومعظم روايات ابن عباس هي عن الصحابة.

وهذه المسألة معروفة عند المحدثين باسم (مراسيل الصحابة) وهي مقبولة باتِّفاق لاختلافها عن مراسيل التابعين؛ فما يرسله الصحابي هو عن صحابي آخر بلا شك، والصحابة كلهم عدول، فعدم ذكر اسم الصحابي الواسطة لا يضر، بخلاف ما يرسله التابعي فقد يكون عن صحابي، وقد يكون عن تابعي آخر. قال ابن قدامة: «فإنَّ الأمة اتفقت على قبول رواية ابن عباس ونظرائه من أصاغر الصحابة مع إكثارهم، وأكثر روايتهم عن النبي ﷺ مراسيل»[٥]. قال البراء بن عازب ﷺ: «ما كلُّ ما حدثْنا به عن رسول الله ﷺ سمعناه منه، غير أننا لا نكذب»[٦].

وعندما روى أنس ﷺ حديث الشفاعة العظمى قال له رجل: «يا أبا حمزة! فسمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ فتغيَّر وجهه واشتد عليه، فقال: ما كلُّ ما نُحدِّثكموه سمعناه من رسول الله ﷺ ولكن لم يكن يَكْذِبُ بعضنا بعضًا»[٧].

ماذا تعني كثرة الرواية (أبو هريرة مثالًا)؟

مسألة كثرة الرواية ينظر إليها من جانبين: الأول: عدد ما وُجد في كتب الحديث من روايات الصحابي عن النبي ﷺ والتي تشمل المكرر نظرًا لعدد الطرق عن كل منهم، والثاني: عدد ما سمع هذا الصحابي من النبي ﷺ، وهذا الثاني هو الذي يدندن حوله المشككون في السنة، ويقولون: يستحيل أن يسمع أبو هريرة مثلاً في أقل من أربع سنوات (٥٣٧٤) حديثًا، ويقسمون عدد الأحاديث

(١) سير أعلام النبلاء، للذهبي (٦٠٦/٢-٦٠٧).
(٢) أعلام الموقعين لابن القيم (١٩/١-٢٠).
(٣) أخرجه الطبراني، المعجم الكبير (٢٥٠/١) برقم (٧١٩).
(٤) أخرجه البخاري (٨٩).
(٥) روضة الناظر وجنة المناظر، لابن قدامة (٣٦٤/١).
(٦) المرجع السابق نفسه.
(٧) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة برقم (٨١٥) وقال: إسناده صحيح، والطبراني في الكبير برقم (٦٩٩).

على الأيام وهكذا. وهذا خلط ربما يكون مُتعمدًا منهم، -مع أنه لا إشكال فيه أيضًا- فحاصل قسمة (٥٣٧٤) على (٤) سنوات يعني: (٤) أحاديث في اليوم وهو عدد عادي ليس فيه أي مبالغة!

ومن المهم التنبيه على أمر آخر؛ وهو أنَّ عدد الأحاديث التي تُنسب إلى الصحابي لا يعني عدد الأحاديث التي سمعها من النبي ﷺ، بل يعني عدد الطرق التي وردت إلينا مع التكرار الذي يجعله مضاعفًا مراتٍ كثيرة، فالرقم المذكور في روايات أبي هريرة (٥٣٧٤) يشمل -كما هو معلوم- الروايات المتعدِّدة للمتن الواحد، فإذا روى المتنَ الواحد عن أبي هريرة مئةُ راوٍ فيعدُّ مئةَ حديث، والمتن واحد فقط[١]. ولكثرة الرواة عن أبي هريرة (٨٠٠) يمكن لنا أن نفسِّر هذا العدد الكبير من الأحاديث، ومن الجدول السابق يتَّضح لنا وجود تناسُب بين عدد رواة كل صحابي وعدد الأحاديث التي رواها، وهذه النتيجة تكشف جانبًا مهمًا في إيضاح كثرة روايات أبي هريرة ﷺ.

وينجلي الأمر تمامًا إذا تأملنا قول أبي هريرة ﷺ: «ما من أصحاب النبي ﷺ أحدٌ أكثر حديثًا عنه مني، إلا ما كان من عبد الله بن عمرو، فإنه كان يكتب ولا أكتب»[٢]، فعبد الله بن عمرو ﷺ كان يكتب، وأبو هريرة يراه أكثر حديثًا منه، لكنه لم يأخذ مكانه بين المكثرين، حيث تقدَّر عدد الأحاديث التي رواها بـ (٧٠٠) حديث، ومعظم أسباب الإكثار التي تقدمت معنا متوافرة فيه، لكن عدد رواته ليس بتلك الكثرة.

عدد الأحاديث التي تُنسب إلى الصحابي لا يعني عدد الأحاديث التي سمعها من النبي ﷺ، بل يعني عدد الطرق التي وردت إلينا مع التكرار الذي يجعله مضاعفًا مراتٍ كثيرة

أمرٌ آخر مهم؛ وهو التفرّغ للتحديث بعد وفاة النبي ﷺ، فمما لا شكّ فيه أنّ أكثر من سمع من النبي ﷺ هو أبو بكر ﷺ، لأنَّه صحبه في الإسلام كله في حلِّه وترحاله، وكان نادرًا ما يفارقه، فلماذا كانت روايات أبي بكر ﷺ عن النبي ﷺ أقل من مئة (٨١ حديثًا في مسند الإمام أحمد)، وروايات أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أضعاف ما روى أبو بكر (٣٨٦٥ في مسند الإمام أحمد)؟! السبب هنا ليس كثرة محفوظ أبي هريرة وقلة محفوظ أبي بكر، بل السبب كثرة تحديث أبي هريرة وتفرُّغه للتحديث، وتصدُّره لنشر العلم، مع طول مدة بقائه بعد النبي ﷺ (٤٨ سنة)، أما قلّة تحديث أبي بكر؛ فهي بسبب انشغاله بأمور الأمة والخلافة، وقِصَر مدَّة بقائه بعد النبي ﷺ (سنتان وبضعة أشهر).

من طبيعة البشر اشتغال كل امرئ بما يجيد من الأعمال، فهؤلاء المكثرون لما رأوا من أنفسهم الرغبة والتميز في التعليم اشتغلوا فيه، فبرزوا وتألقوا. أما الخلفاء الراشدون فقد اشتغلوا بأمر إقامة الدولة وهو من أعظم الأمور، وقدّموه على المهمّ وهو التعليم لاسيما مع وجود من يسدّ مكانهم فيه

أوهام إضافية في الأرقام الكبيرة:

الروايات التي وردت عن الصحابة المكثرين ليست كلها من الصحيح، وعليه فالروايات الضعيفة وشديدة الضعف ينبغي ألا تدخل في الحساب!

وثمة مسألة تضيفها هالة الأرقام الكبيرة، ففي حالة أبي هريرة تفوق مروياته خمسة آلاف حديث، فمن يسمع الرقم قد يخطر بباله أنَّ هذه الأحاديث لم يروها غير أبي هريرة، والواقع أنَّ الغالبية العظمى من هذه الأحاديث يشاركه فيها غيره. وأنَّ ما انفرد بروايته عن النبي ﷺ لا يكاد يساوي شيئًا بالنسبة إلى كل مروياته.

فقد وجدت مجموعة من الباحثين[٣] أنّ مرويات أبي هريرة في الكتب التسعة (ومنها مسند الإمام أحمد، أكبر كتاب حديثي وصل إلينا) التي انفرد بها بدون تكرار، ولم يروها أحد غيره من الصحابة هي (٤٢ حديثًا) فقط[٤].

(١) ذكر الدكتور محمد عبده يماني أن أحاديث أبي هريرة في الكتب التسعة (٨٩٦٠) حديثًا، وبعد حذف المكرر تبلغ (١٤٧٥) حديثًا فقط، ينظر: مقالة اتقوا الله في أبي هريرة في موقع الدكتور.

(٢) أخرجه البخاري (١١٣).

(٣) بإشراف الدكتور محمد عبده يماني رحمه الله.

(٤) مقالة اتقوا الله في أبي هريرة في موقع الدكتور محمد عبده يماني.

العوامل التي أدت إلى رفع أعداد مرويات المكثرين

وقد قال الدكتور محمد طاهر البرزنجي (محقق تاريخ الطبري): إنه وجد أنَّ ما انفرد به أبو هريرة عن غيره من الصحابة هو ثمانية أحاديث فقط[١]، فكم هي نسبة (٨) إلى (٥٣٧٤)؟! إنها لا تشكِّل شيئًا، أقل من ١,٥ بالألف!! فيا سبحان الله كم يخوض الخائضون بغير علم ولا هدى ولا كتاب مبين؟!

الخلاصة:

بعد هذه المناقشة يتبين لنا بوضوح أنَّ هؤلاء المكثرين توفر لهم عاملان رئيسان أسهما في رفع أعداد مروياتهم، وهما:

١. قوة الاستيعاب المبنية على ثلاثة أمور، وهي:

» الملازمة والسماع الكثير: وهذا متحقِّق فيهم جميعًا، سماعًا من النبي ﷺ، وسماعًا من الصحابة الآخرين.

» جودة الحفظ: وهذا متحقق فيهم جميعًا، إما بدعاء النبي ﷺ لهم، أو لحداثة أسنانهم ووقدة أذهانهم.

» العناية بطلب العلم: وهذا شأنهم جميعًا كما مر معنا.

٢. كثرة الرواية عنهم المبنية على ثلاثة أمور، وهي:

» إكثارهم من تعليم الناس: وهذا متحقق فيهم جميعًا، فكانوا أعمدة العلم وأساطينه.

» كثرة الرواة عنهم: وهذا مبني على النقطة السابقة.

» طول أعمارهم: وهذا متحقق فيهم جميعًا، فأقلهم مدَّة بعد النبي ﷺ عائشة رضي الله عنها؛ ماتت بعد النبي بـ (٤٨) عامًا، وأكثرهم أنس رضي الله عنه؛ عاش بعد النبي ﷺ (٨٣) عامًا فتأمل!

ومما لا يُغفل هنا أنَّ من طبيعة البشر اشتغال كل امرئ بما يجيد من الأعمال، فهؤلاء الصحابة لما رأوا من أنفسهم الرغبة والتميز في التعليم اشتغلوا فيه، فبرزوا وتألقوا.

أما الخلفاء الراشدون فقد اشتغلوا بأمر إقامة الدولة وهو من أعظم الأمور، وقدّموه على المهمّ وهو التعليم لاسيما مع وجود من يسدّ مكانهم فيه، وعلى رأسهم هؤلاء المكثرون.

وبعد، فهذا اجتهاد مني في توضيح بعض الجوانب في كثرة رواية الأحاديث عن صحابة معيَّنين دون غيرهم، فإذا أصبتُ في ذلك فبتوفيق من الله، وإن أخطأتُ فمن نفسي أُتيت. والحمد لله رب العالمين.

(١) قال الأستاذ عبد الملك الصالح، في مقالته: قراءة في كتاب: (الجناية على البخاري) للأستاذ مروان الكردي في العدد السادس من مجلة رواء: «أخبرني شيخنا المحقق محمد طاهر البرزنجي حفظه الله أن عدد ما انفرد به أبو هريرة من الصحيح هو ثمانية أحاديث فقط، حسب إحصاء قام به».

تعزيز الأمن الفكري من خلال الحوار التربوي في سيرة الرسول ﷺ

أ.فداء محمود الشوبكي (*)

يحتاج الإنسان إلى الأمن في الفكر والتفكير والتعبير كحاجته للأمن في الغذاء والمسكن، فيخرج مكنونات صدره، وما يخطر في ذهنه، مما يمكن المربين من تعزيز المهارات اللغوية والتعبيرية، وصقل الأفكار وتهذيبها. ويُعد الحوار من أرقى أدوات بناء الأمن الفكري وتعزيزه، خصوصاً إذا كان ذا طابع تربوي نابع من هدي خاتم الأنبياء وخير المرسلين محمد ﷺ وسيرته، ومن ذلك حواراته مع عموم الناس.

من وجوه كمال الشريعة الإسلامية حماية حقوق الإنسان، ومنها: حق الأمن بأنواعه المختلفة، فالأمن والطمأنينة من الغايات النبيلة التي يحرص الإسلام عليها، وعلى رأسها الأمن الفكري المرتبط بجوانب الأمن الأخرى، ففي تحقيقه صلاح لجميع جوانب الحياة، ونمو وازدهار للمجتمع، وفي الاعتداء عليه فساد للحياة وإفساد للمجتمع، مع ما فيه من مخالفة للأمر الإلهي الذي يستوجب المساءلة.

والأخلاق المستمدة من الدين تنظم سلوك الفرد والجماعة، وتنمي الضمير الفردي والجماعي، ولكن المدنية المتغيرة تؤثر في النمو الديني والأخلاقي للناس، وتسبب لهم الاضطراب والقلق؛ لذا كان لابد من معالجة تأثيراتها، ومن أنسب الأساليب المتبعة لتحقيق الأمن الفكري أسلوب الحوار التربوي فهو أسلوب مخاطبة العقل، ومواجهة الفكر بالفكر، وتقديم نموذج راقٍ للحوار، وقد نهجه الرسول ﷺ في حياته، فحاور الناس وجادلهم بالحكمة والموعظة الحسنة، كما سيتضح من هذا المقال.

مفهوم الحوار التربوي:

يعد الحوار أحد أشكال الاتصال، وفي امتلاك الإنسان لهذا الأسلوب قدرة على إقناع السامع والتأثير عليه وكسب تأييده وثقته[١].

والحوار التربوي فن من فنون الكلام وصيغة من صيغ التواصل وأسلوب من أساليب العلم والمعرفة، ووسيلة من وسائل التبليغ والدعوة، وطريقة للتفاهم وتبادل المعارف وتقريب وجهات النظر بين الناس[٢].

(*) ماجستير مناهج وطرق تدريس العلوم، معلمة في وزارة التربية والتعليم بغزة، لها عدة مشاركات بحثية.

(١) ينظر: الأمن الفكري في مقررات التربية الإسلامية في المرحلة الثانوية دراسة ميدانية، سعد بن صالح العتيبي، ص (٣٧).

(٢) دور منهج العلوم الشرعية في تعزيز الأمن الفكري لدى طلاب الصف الثالث الثانوي، جبير بن سليمان الحربي، ص (٥٢).

ومن خلال النظر في تعريفات المختصين للحوار، يمكن تعريف الحوار التربوي بأنه: محادثة بين طرفين أو أكثر بأسلوب تربوي لبحث مشكلة عالقة، أو قضية بها خلاف بين المتحاورين بهدف تعديل الأفكار غير الصحيحة أو إزالة التناقض أو زيادة اتساق الفكرة وإقناع العقل بالأفكار السليمة حيث يعرض فيها كل طرف أفكاره، وحججه، ويقدم الأدلة التي توضح فكرته، وتؤيد رأيه، لينتهي الحوار بالرضا والاقتناع برأي صاحب الحجة الأقوى بعيدًا عن أي عوامل خارجية.

الهدف الأساس من الحوار التربوي: هداية الخلق إلى الحق، لا غلبتهم أو إلحاق الهزيمة بهم

أهداف الحوار التربوي:

الهدف الأساس من الحوار التربوي: هداية الخلق إلى الحق، لا غلبتهم أو إلحاق الهزيمة بهم، قال الشافعي رحمه الله في ذلك: «ما ناظرتُ أحدًا قط إلا أحببت أن يُوفَّق ويُسدَّد ويُعان ويكون عليه رعاية من الله وحفظ، وما ناظرت أحدًا إلا ولم أبال بَيَّنَ اللهُ الحقَّ على لساني أو لسانه»[١]، فالحوار التربوي الهادئ مفتاح القلوب وطريق للنفوس وبه تحصل الدعوة فهو يعمل على[٢]:

- إيضاح الحق، وإزهاق الباطل.
- الرضا والقبول والاطمئنان القلبي للحق، والدافعية للالتزام به.
- المساعدة في كشف الشبهات ودفع الفاسد من القول والرأي واستكشاف الحقائق والإيجابيات والاستفادة منها.
- بناء قيم عليا في نفوس المتحاورين والمستمعين.

الضوابط والآداب التي يجب مراعاتها عند الحوار التربوي:

حتى يكون الحوار هادفًا بين المتحاورين ينبغي الالتزام بما يلي[٣]:

- الرحمة بالخلق والحرص على هدايتهم.
- الحكمة والموعظة الحسنة واللين مع المخاطبين.
- فهم طبيعة المخاطب وذكر الحجج بعيدًا عن التجريح والألفاظ النابية.
- حسن الاستماع للطرف الآخر، فالحوار مسألة تبادل للآراء.
- إخلاص النية لله تعالى، ودفع حب الظهور والتميز والتعالي على الأنداد عن النفس[٤].
- الالتزام بموضوع الحوار وعدم الخروج عنه.
- تحديد المصطلحات المستخدمة في الحوار وشرح مدلولاتها جيدًا.
- التدرج في مناقشة المسائل بحسب أهميتها.
- تلطيف أجواء الحوار بإسداء بعض عبارات الاحترام والتقدير للطرف الآخر.
- عدم التسرع في الإقناع لأن ذلك يجرح مشاعر الطرف الآخر.

ويمكن القول إنه لابد من الحفاظ على وحدة الموضوع والهدف، والاتفاق على المسلمات، ودقة الوثائق وعدم التناقض في الكلام، كذلك الاحترام المتبادل، وحرية الرأي وعدم المقاطعة، والأمانة والمصداقية في الحوار.

الأمن الفكري يستمد جذوره من عقيدة الأمة ومسلّماتها، ولا يكتب النجاح للدعوة إلا في وجوده، فهو مبعث أمان الأمة، وحماية لوجودها وتميزها عن باقي الأمم

الأمن الفكري:

وردت كلمة الأمن ومشتقاتها في كثير من الآيات فقال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥].

(١) حلية الأولياء، لأبي نعيم (١١٨/٩).
(٢) عقائد اليهود من خلال الحوار مع النبي صلى الله عليه وسلم، عدنان أحمد البرديني، ص (٧).
(٣) الأمن في ضوء القصص القرآني دراسة قرآنية موضوعية، سامي الجدبة، ص (١٧٣).
(٤) عقائد اليهود من خلال الحوار مع النبي صلى الله عليه وسلم، عدنان أحمد البرديني، ص (٨).

ضوابط وآداب ينبغي مراعاتها عند الحوار التربوي

١ الرحمة بالخلق والحرص على هدايتهم

٢ الحكمة والموعظة الحسنة واللين مع المخاطبين

٣ فهم طبيعة المخاطب وذكر الحجج وتجنب التجريح

٤ حسن الاستماع للطرف الآخر

٥ إخلاص النية لله تعالى، ودفع حب الظهور والتميز والتعالي

٦ الالتزام بموضوع الحوار وعدم الخروج عنه

٧ تحديد المصطلحات المستخدمة في الحوار وشرح مدلولاتها

٨ التدرج في مناقشة المسائل بحسب أهميتها

٩ تلطيف أجواء الحوار بإسداء عبارات الاحترام والتقدير

١٠ عدم التسرع في الإقناع

وقال: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٩].

ويقول عز وجل: ﴿وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [النساء: ٨٣].

ويقول: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٨١].

فالأمن الفكري مقياس التزام الأفراد بالمنهج الوسطي وحرية الرأي في التعبير مما يحفظ سلامتهم الفكرية والاجتماعية والدينية والسياسية ويبعدهم عن مواطن التهديد. وهو من المنازل العليا في مراتب الأمن من حيث أهميته وخطورته، فتصرفات الناس تنطلق من قناعاتهم الفكرية.

أهمية الأمن الفكري:

للأمن الفكري أهمية عظيمة في حياة الفرد والمجتمع؛ فهو وسيلة المحافظة على الأمة وشخصيتها، وعنصر أساسي في تقدم الشعوب، ويحدد تصور الإنسان للحياة ووجوده فيها، فالمساس به يمس المجتمع كله، واختلاله يؤدي إلى سلب هوية الأمة. وتحقيقه لدى الفرد يؤمن تحقيقًا تلقائيًا للأمن في الجوانب الأخرى كافة[١].

والأمن الفكري يستمد جذوره من عقيدة الأمة ومسلماتها، ولا يكتب النجاح للدعوة إلا في وجوده[٢]، فهو مبعث أمان الأمة وعنوان تقدمها مرهون بسلامة عقول أفرادها ونزاهة أفكارهم، وحماية لوجود الأمة وتميزها عن باقي الأمم ويتطلب حماية جميع المنازل من الاختراق قدر الإمكان[٣].

(١) دور منهج العلوم الشرعية في تعزيز الأمن الفكري لدى طلاب الصف الثالث الثانوي، جبير بن سليمان الحربي، ص (٢٤، ٣١-٣٣).
(٢) الأمن الفكري في الشريعة الإسلامية، تيسير رامي فارس، ص (٤١-٤٥).
(٣) إسهام الإعلام التربوي في تحقيق الأمن الفكري لدى طلاب المرحلة الثانوية لمدينة مكة المكرمة من وجهة نظر مديري ووكلاء المدارس والمشرفين التربويين، زيد بن زايد الحارثي، ص (٤٨-٥٢).

ومن أهميته أنه يؤدي إلى[١]:

- تنمية مهارات التفكير فلا يحجم العقل عن السؤال.
- التربية على الحوار الإيجابي.
- تنمية المجتمع فلا تنمية مجتمعية بدون أمن فكري.
- والأمن الفكري يتعامل مع الناس من خلال مسايرتهم من غير مصادمة، ويخفف من الجريمة في المجتمع.

مراحل تحقيق الأمن الفكري:

لتحقيق الأمن الفكري لابد من توافر المراحل التالية:

- مرحلة التعليم والبناء الفكري.
- مرحلة الوقاية.
- مرحلة التقويم.
- مرحلة العلاج.

وقد استخدم الرسول ﷺ مجموعة من الأساليب لتحقيق الأمن الفكري، ونتعرض هنا لبعض الأمثلة من سيرة الحبيب لاستخدامه الحوار التربوي الهادف في المراحل المختلفة للأمن الفكري:

المرحلة الأولى: التعليم والبناء الفكري:

حرص ﷺ على تعليم المؤمنين أمور دينهم من عقائد وعبادات وأخلاق وأمور الدين وذلك من خلال حواره مع الصحابة والإجابة عن أسئلتهم واستفساراتهم عن الأمور التي أشكلت عليهم والإقرار بالصواب وتصحيح الأخطاء. فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال: (أتدرون ما الغِيبة؟) قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: (ذِكرُك أخاك بما يكره)، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: (إن كان فيه فقد اغتبته وإن لم يكن فيه فقد بهته)[٢].

وفي هذا الحوار أسلوب تربوي فيه مخاطبة لعقول الصحابة مما يعمل على نشر الأمن في المجتمع.

كذلك ما ورد عن أنس بن مالك رضي الله عنه في الحديث: بينما نحن جلوس مع النبي ﷺ في المسجد، دخل رجل على جمل، فأناخه في المسجد ثم عَقَلَه، ثم قال لهم: أيكم محمد؟ والنبي ﷺ متكئ بين ظهرانيهم، فقلنا: هذا الرجل الأبيض المتكئ. فقال له الرجل: يا ابن عبد المطلب فقال له النبي ﷺ: (قد أجبتك). فقال الرجل للنبي ﷺ: إني سائلك فمُشدِّدٌ عليك في المسألة، فلا تجدْ عليَّ في نفسك؟ فقال: (سل عما بدا لك) فقال: أسألك بربك ورب مَن قبلك، آلله أرسلك إلى الناس كلهم؟ فقال: (اللهم نعم). قال: أنشدك بالله، آلله أمرك أن نصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؟ قال: (اللهم نعم). قال: أنشدك بالله، آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر من السنة؟ قال: (اللهم نعم). قال: أنشدك بالله، آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا؟ فقال النبي ﷺ: (اللهم نعم). فقال الرجل: آمنت بما جئتَ به، وأنا رسول مَن ورائي مِن قومي، وأنا ضِمامُ بن ثَعلبَة أخو بني سعد بن بكر[٣].

فأسلوب الحوار الذي قام به الرسول ﷺ جعله يغير من فكره وينقل ذلك إلى قبيلته، وبذلك نشر الحق في المجتمعات.

كما رسم الرسول ﷺ صورة رائعة في حواره مع حاطب بن أبي بلتعة وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وخلاصته: أن الرسول ﷺ لما أجمع المسير إلى مكة، كتب حاطب بن أبي بلتعة كتابًا إلى قريش يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله ﷺ من الأمر في السير إليهم. ثم أعطاه امرأة -زعم محمد بن جعفر أنها من مزينة، وزعم لي غيره أنها سارة مولاة لبعض بني عبد المطلب-، وجعل لها جعلاً على أن تبلغه قريشًا، فجعلته في رأسها، ثم فتلت عليه قرونها، ثم خرجت به. وأتى رسولَ الله ﷺ الخبرُ من السماء بما صنع حاطب، فبعث علي بن أبي طالب والزبير بن العوام، فقال: (أدركا امرأة قد كتب معها حاطب بن أبي بلتعة بكتاب إلى قريش، يحذرهم ما قد أجمعنا له من أمرهم).

فخرجا حتى أدركاها بالخَليقة[٤]، خَليقةِ بني أبي أحمد فاستنزلاها، فالتمساه في رحلها، فلم يجدا فيه شيئًا.

(١) الأمن الفكري في مقررات التربية الإسلامية في المرحلة الثانوية دراسة ميدانية، سعد بن صالح العتيبي: ص (٦١).
(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨٩).
(٣) أخرجه البخاري (٦٣).
(٤) الخَليقة (بالقاف) مَنزلٌ على اثني عشر ميلًا من المدينة بينها وبين ديار سليم، معجم البلدان، للحموي (٣٨٧/٢).

مراحل تحقيق الأمن الفكري

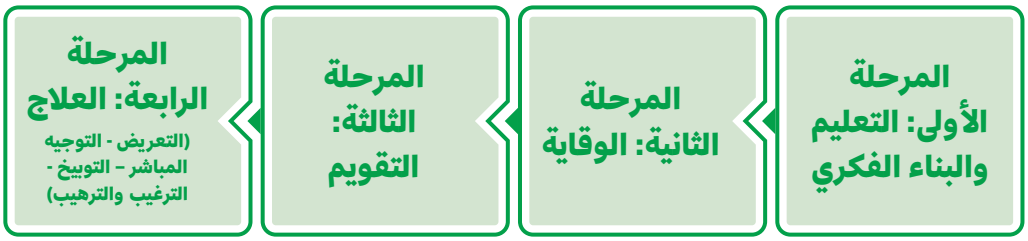

فقال لها علي: إني أحلف بالله ما كذب رسول الله ﷺ ولا كذبنا، ولتخرجن لنا هذا الكتاب أو لنكشفنك: فلما رأت الجد منه قالت: أعرض، فأعرَض، فحلت قرون رأسها، فاستخرجت الكتاب منها، فدفعته إليه.

فأتى به رسولَ الله ﷺ، فدعا رسولُ الله ﷺ حاطبًا، فقال: (يا حاطب ما حملك على هذا؟).

فقال: يا رسول الله أما والله إني لمؤمن بالله وبرسوله ما غيرت ولا بدلت، ولكنني كنت امرءًا ليس لي في القوم من أصل ولا عشيرة، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل، فصانعتهم عليهم.

فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله دعني فلأضرب عنقه فإن الرجل قد نافق.

فقال رسول الله ﷺ: (وما يدريك يا عمر، لعل الله قد اطلع على أصحاب بدر يوم بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم)[1].

المرحلة الثانية: الوقاية:

وهي اتخاذ الأساليب والإجراءات العملية لحماية الفكر من الانحراف، ومن الأمثلة على ذلك ما قام به الرسول ﷺ عندما رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقرأ التوراة حيث غضب الرسول ﷺ خوفًا من المفسدة التي ستسببها، وخوفًا من اختلاط الحق بالباطل، وبذلك يتم تجنب المفاسد قبل وقوعها، فعن جابر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتى النبيَّ ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكُتُب، فقال: يا رسول الله، إني أصبت كتابًا حسنًا من بعض أهل الكتاب، فغضب، وقال: (أَمُتَهَوِّكون فيها يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده، لو كان موسى حيًا اليوم ما وسعه إلا أن يتبعني)[2].

وقد حرص أصحاب الرسول ﷺ على حماية أنفسهم والابتعاد عن الشبهات، مخافة الانحراف الفكري، فعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه يقول: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول

(١) سيرة ابن هشام (٢/٣٩٨-٣٩٩)، وأكثر جُمل هذا الحديث في الصحيحين، ينظر: صحيح البخاري (٣٠٠٧، ٣٩٨٣، ٤٢٧٤، ٤٨٩٠) وصحيح مسلم (٢٤٩٤)، وفي الصحيحين تسمية المكان بـ (روضة خاخ).

(٢) أخرجه أحمد (١٥١٥٦) وابن أبي شيبة (٢٦٤٢١)، وإسناده ضعيف، فيه مجالد بن سعيد، لين الحديث وقد اختلط.

الله إنا كنا في الجاهلية في شر فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: (نعم)، قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: (نعم وفيه دَخَن). قلت وما دخنه؟ قال: (قوم يهدون بغير هديي تعرف منهم وتنكر). قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: (نعم دعاة إلى أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها). قلت: يا رسول الله صفهم لنا؟ فقال: (هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا). قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: (تلزم جماعة المسلمين وإمامهم)، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: (فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك)[1] وفي هذا الحوار التربوي وقاية لما قد يصيب المجتمع من ضلال فكري، وكيفية الوقاية منه.

المرحلة الثالثة: التقويم:

وهي تعني تقويم ما يراه الإنسان من أخطاء وتصحيحها وعدم الصمت حيالها ما دام يعلم عدم صوابها. عن عامر بن سعد عن أبيه قال: قسم رسول الله ﷺ قسمًا، فقلت: يا رسول الله، أعط فلانًا فإنه مؤمن، فقال النبي ﷺ: (أو مسلم) أقولها ثلاثًا، ويرددها علي ثلاثًا (أو مسلم)، ثم قال: (إني لأعطي الرجل، وغيره أحبُّ إليَّ منه، مخافة أن يكبه الله في النار)[2].

ففي الحديث حوار دار بين سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه والرسول ﷺ حول كون الرجل الذي لم يعطَ مؤمنًا، ولكن الرسول يقوم الأخطاء ويبين أن هناك فرقًا بين الإيمان والإسلام فلا نحكم على الأمور بظاهرها، وبين له سبب العطاء لغيره من المؤلفة قلوبهم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل من بني فزارة إلى النبي ﷺ فقال: إن امرأتي ولدت غلامًا أسود فقال النبي ﷺ: (هل لك من إبل؟) قال: نعم، قال: (فما ألوانها؟) قال: حمر قال: (هل فيها من أورَقَ؟) قال: إن فيها لَوُرقًا، قال: (فأنى أتاها ذلك؟) فقال: عسى أن يكون نزعه عرقٌ، قال: (وهذا عسى أن يكون نزعه عرق)[3]. ففي هذا الحديث تصحيح مسار السائل، وذلك مما يحقق الأمن الفكري للمجتمع، حيث إن الحوار مع هذا السائل أدى إلى إبعاد الشكوك عن قلبه، والتي وجودها كان من الممكن أن يسبب خللًا أسريًا، وبالتالي تفكك المجتمع.

لتحقيق الأمن الفكري لابد من توافر أربعة مراحل:
- مرحلة التعليم والبناء الفكري.
- مرحلة الوقاية.
- مرحلة التقويم.
- مرحلة العلاج.

المرحلة الرابعة: العلاج:

وهي آخر مرحلة من مراحل تحقيق الأمن الفكري والتي تكون بعد تقويم الفرد ومحاورته للتخلص من مشاكله الفكرية، فلا يمكن تركه دون علاج، لأنه قد يسبب تهديدًا للأمن والاستقرار ونشر الفكر المنحرف إذا لم تتم معالجته. وهذا العلاج على درجات:

- **التعريض:** ففي الحديث كان النبيُّ ﷺ، إذا بلغَه عن الرجلِ الشيءُ، لم يقل: ما بالُ فلان يقولُ، ولكن يقولُ: (ما بالُ أقوامٍ يقولون كذا وكذا)[4]، وفي ذلك حرص الرسول ﷺ على مشاعر الناس، ويستخدم التعريض ثم ينهى أو يأمر بالواجب، فيتعلم الجميع دون أن يتأذى المسيء.
- **التوجيه المباشر:** عن عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه قال: كنت في حَجر رسول الله ﷺ، وكانت يدي تَطيشُ في الصَّحْفَة، فقال لي: (يا غلام، سم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك)[5].
- **التوبيخ:** فعن المَعرور بن سويد رضي الله عنه قال: رأيتُ أبا ذرٍّ رضي الله عنه وعليه حُلَّةٌ، وعلى غُلامه مثلُها، فسألتُه عن ذلك، قال: فذكر أنه سَابَّ رجلاً على عهد رسول الله ﷺ، فعَيَّرهُ بأمه، قال: فأتى الرجلُ النبيَّ ﷺ، فذكر ذلك له، فقال النبي ﷺ: (إنك امرُؤٌ فيكَ جاهليةٌ، إخوانُكم وخَوَلُكم، جعلهم

(١) أخرجه البخاري (٣٦٠٦)، ومسلم (١٨٤٧).
(٢) أخرجه مسلم (١٥٠).
(٣) أخرجه البخاري (٦٨٤٧) ومسلم (١٥٠٠).
(٤) أخرجه أبو داود (٤٧٨٨).
(٥) أخرجه مسلم (٢٠٢٢).

الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يديه، فليُطعِمه مما يأكل، وليُلبِسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم عليه)[١].

» **الترغيب والترهيب:** ففي الأحاديث وصف للجنة والنار، والجزاء والعقاب وفي ذلك علاجٌ للانحراف الفكري، فعن أبي بكرة ﷺ قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: (ألا أُنبِّئُكُم بأكبرِ الكبائرِ) «ثلاثًا» (الإشراكُ باللهِ وعقوقُ الوالدَيْنِ وشهادةُ الزورِ -أو قولُ الزُّورِ-) وكان رسول الله ﷺ متكئًا فجلس. فما زال يكررها حتَّى قلنا ليته سكت[٢].

وقد حرص الرسول ﷺ على حماية الشباب فكريًا، فعن أبي أمامة ﷺ قال: إن فتى شابًا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا: مه. مه. فقال: (ادنه)، فدنا منه قريبًا. قال: فجلس قال: (أتحبه لأمك؟) قال: لا والله، جعلني الله فداءك. قال: (ولا الناس يحبونه لأمهاتهم). قال: (أفتحبه لابنتك؟) قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك. قال: (ولا الناس يحبونه لبناتهم). قال: (أفتحبه لأختك؟) قال: لا والله، جعلني الله فداءك. قال: (ولا الناس يحبونه لأخواتهم). قال: (أفتحبه لعمتك؟) قال: لا والله، جعلني الله فداءك. قال: (ولا الناس يحبونه لعماتهم). قال: (أفتحبه لخالتك؟) قال: لا والله، جعلني الله فداءك. قال: (ولا الناس يحبونه لخالاتهم). قال: فوضع يده عليه وقال: (اللهم اغفر ذنبَه، وطهر قلبَه، وحصن فرجَه). قال: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء[٣]. ففي الحديث أراد الرسول ﷺ أن يقر في ذهن السائل ومن بعده قاعدة مهمة وهي «ما لا ترضاه لنفسك لا ترضاه للناس» وبذلك عالج الموضوع فكريًا دون زجر أو عقاب، بل من خلال القناعة الفكرية بسوء ما يفكرون به، وهو ما لا يقبله عاقل لنفسه أو غيره.

وإذا لم يتم معالجة الفكر بالحوار التربوي تأتي مرحلة تنفيذ العقوبة عليه لكن لابد من الحوار للتثبت قبل إقامة الحد بالإقرار والبينة ولفتح باب التوبة له.

> **معرفة الأفراد المنحرفين بأن القصاص ينتظرهم يجعله رادعًا لهم قبل الإقدام على الجريمة، وبذلك يأمن المجتمع ويأمن كل فرد على نفسه**

وذلك كما حدث أنَّ ماعزَ بنَ مالكٍ أتَى النبيَّ ﷺ، فقالَ لَهُ: (لعلكَ قبَّلتَ أو غَمزتَ أو نظرتَ) قالَ لا. قالَ: فعلتَ كَذا وكَذا؟ لا يَكنِي. قالَ: نعم. فعند ذلك أمرَ برجمِهِ[٤].

فمعرفة الأفراد المنحرفين بأن القصاص ينتظرهم يجعله رادعًا لهم قبل الإقدام على الجريمة، وبذلك يأمن كل فرد على نفسه، والمجتمع.

خلاصة القول:

لقد تم عرض جزء مهم من سيرة الرسول ﷺ، حيث استخدم أسلوبًا تربويًا مع معاصريه وهو الحوار التربوي، وهذا الأسلوب انعكس إيجابيًا على من يخاطبهم، وذلك في تعزيز الأمن الفكري لديهم، فكان لابد من مواجهة الفكر بالفكر، ولذلك كانت أمة الإسلام أمة عزيزة، تهتم بنشر الأمن في المجتمع. وقد تم عرض مجموعة الوسائل اللازمة لتحقيق الأمن الفكري من خلال ثلاث مراحل هي الوقاية والتقويم والعلاج. لذا كان من الواجب علينا:

» العناية بجوانب الأمن المختلفة وخصوصًا الأمن الفكري.

» التربية السليمة للأبناء التي تؤدي إلى نَشءٍ يعِي مكانتَه بين المجتمعات.

» الاهتمام بسيرة الرسول ﷺ وبيان الأساليب المستخدمة والعلاجية لمحاربة الانحراف الفكري.

(١) أخرجه مسلم (١٦٦١).
(٢) أخرجه مسلم (٨٧).
(٣) أخرجه أحمد (٢٢٢١١).
(٤) أخرجه البخاري (٦٨٢٤).

واجب الشعوب في حماية النظام السياسي الشرعي

د. عماد الدين خيتي (*)

من أهم الضمانات التي تحفظ المجتمع، وتمنع ظلم الظالم، وتأطره على الحق: القوة التي تملكها الشعوب، ويخشاها المستبدون، فعملوا على دفنها بعيدًا خلف طبقات من التجهيل والإفقار والتغييب، فتحكَّموا في مُقدَّرات الأمّة، وجعلوها فداءً لعروشهم، وإذا أردنا إحياء هذه القوة وإعادة بث الروح فيها فأول الطريق هو توعية الشعوب بحقوقها وحجمها الحقيقي، وما بإمكانها فعله وتغييره.

مدخل[1]:

دأبت الأنظمة المستبدّة على إلغاء أيّ مكانة للشعوب في بُنية نظامها السياسي، وحصرها في مسائل السمع والطاعة وتنفيذ الأوامر، فجعلتها مسرحًا لتجاربهم ومغامراتهم، ومكانًا لممارسة سلطتهم وبطشهم، واستخدمت في سبيل ذلك ما تملكه من أدواتِ ترغيبٍ وترهيبٍ، وتسخيرِ «علماءِ السلطان» لتضخيم الحديث عن الواجبات بيان الحقوق التي أقرّتها الشريعة وأكّدت عليها؛ ممّا أدّى إلى جهلِ الشعوب بحقوقها؛ فصمتت عن أخطاء حكّامها، واستجدت جلّاديها، واعتبرت ما يلقونه إليها من فُتاتٍ مَكرُمَاتٍ تستحقّ جزيلَ الثناء!

مكانة الشعب في النظام السياسي الإسلامي:

تحتلّ جماعة المسلمين -وهي التي يطلق عليها الأمّة أو الشعب، بالاصطلاح المعاصر- مكانة كبيرة في النظام السياسي الإسلامي:

فهي التي يتوجّه إليها الخطاب الشرعي في عامّة الأمور السياسية مما ورد في القرآن بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الذِيْنَ آمَنُوا ..﴾، وفي الحديث بقوله ﷺ: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ..).

(*) باحث ومتخصص في الدراسات الإسلامية، نائب رئيس مجلس الإفتاء في المجلس الإسلامي السوري.

(١) أصل المقال مشاركة في ندوة عقدها مركز محكمات بعنوان «الثوابت الشرعية في مواجهة الانقلابات العسكرية».

- وهي التي يتوجّه إليها النظام السياسي بالتنظيم والضبط، فهي محلّ تطبيقه وتنفيذه.
- وهي مصدر سلطة الحاكم «ولي الأمر».
- وهي التي تنبثق منها سلطات الدولة الثلاث: التشريعية والتنفيذية والقضائية.

لذا فقد أناط بها الشارعُ جملةً من الحقوق والأحكام التي تمثّل ركائزَ يقوم عليها النظامُ المتكاملُ في المنظومة السياسية الإسلامية: بناءً، ومشاركةً، وحمايةً من الانحراف، وفي هذا المقال عرض لأهمّ هذه الركائز[١]:

> **أناط الشارعُ بالشعوب جملةً من الحقوق والأحكام التي تمثّل ركائزَ يقوم عليها النظامُ المتكاملُ في المنظومة السياسية الإسلامية: بناءً، ومشاركةً، وحمايةً من الانحراف**

الركيزة الأولى: حقّ اختيار الحاكم:

من غير الممكن أن يشارك جميع الشعب في الحكم؛ لذا فقد انتدب الشرع أحد أفراده ليقوم بهذه المهمة نيابة عنهم[٢]، وفي المقابل: كفلت الشريعة الإسلامية للشعب حقّ اختيار من ينوب عنه ويتولى إدارة شؤونه، وجاءت بذلك العديد من النصوص الشرعية، منها: حديث عائشة ﵂ قالت: قال لي رسول الله ﷺ في مرضه: (ادعي لي أبا بكرٍ أباكِ، وأخاكِ؛ حتى أكتب كتابًا، فإني أخاف أن يتمنَّى مُتمنٍ ويقول قائل: أنا أولى، ويأبى اللهُ والمؤمنونَ إلا أبا بكر)[٣].

ففي هذا الحديث أثبتَ النبي ﷺ لعموم الناس الحقَّ في إثبات تولي الخليفة أو رفضه، مما يدلّ على أنّهم أصحاب الشأن في ذلك.

وهذا ما فهمه الصحابة ﵃ وعملوا به، فعن ابن عباس ﵄: أنّ عمر بن الخطاب ﵁ قال: «مَن بايع رجلاً عن غيرِ مشورةٍ من المسلمين، فلا يُبايع هو ولا الذي بايعه؛ تَغِرَّةً أن يُقتلا»[٤].

وإثبات حقّ الشعب في اختيار الحاكم محلُّ اتفاق بين أهل العلم:

قال النووي: «وأجمعوا على أنّه يجب على المسلمين نصبُ خليفة»[٥].

وقال الماوردي في حال النزاع في عقد الإمامة لشخصين: «فإن تنازعاها وادّعى كلّ واحد منهما أنّه الأسبق لم تُسمع دعواه ولم يحلف عليها؛ لأنّه لا يختص بالحقّ فيها، وإنّما هو حقّ المسلمين جميعًا، فلا حكم ليمينه فيه ولا لنكوله عنه»[٦].

وقال ابن تيمية: «إنّما صار -أي أبو بكر- إمامًا بمبايعة جمهور الصّحابة الذين هم أهل القدرة والشوكة ... فإنّ المقصودَ حصولُ القدرة والسّلطان اللذَين بهما تحصل مصالحُ الإمامة، وذلك قد حصل بموافقة الجمهور على ذلك»[٧].

واختيار الشعب للحاكم يكون بطرق من أهمها:

- **اختيار أهل الحل والعقد للحاكم**، الذين هم ممثّلوا الشّعب ونوّابه في اختيار الحاكم، وهم الذين يختارهم الشعب بدوره للقيام بهذه المهمة، ومما يماثلهم في هذا الوقت أعضاء البرلمانات والمجالس النيابية.

قال الشيخ عبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني: «والمؤهّلون لاختيار واصطفاء أمير المؤمنين الأعلى وتأدية أمانة الحكم إليه يختلفون مِن مجتمع لمجتمع ومِن بيئة لبيئة ومِن زمن لزمن ... وما دام هذا الأمرُ متروكًا للمسلمين فلهم أنْ يُنَظّموا الشّكل الذي يؤدّون به أمانة إمارة المؤمنين لمن هو أصلح المؤمنين لها، وهو أهلها.

---

(١) جميع المسائل المطروحة لها تفصيلات وضوابط وشروط لن يتعرّض لها المقال؛ لأنّ هدفه الكشف عن الإطار الكلّي العام الذي يحكم المسألة دون الخوض في تفاصيلها.

(٢) يختص الحاكم باجتماع أمور فيه نظرًا لأهميته وطبيعة مكانته: فهو نائب عن الشرع في إقامة الدين، ونائب عن الشعب في إدارة شؤونهم، ووكيل عن الشعب، وله نوع ولاية عليهم. فلا تنحصر مكانته في النيابة عنهم، لكن لما كانت هي المقصود بالكلام في هذا الموضع جرى الاقتصار على ذكرها.

(٣) أخرجه مسلم (٢٣٨٧).

(٤) أخرجه البخاري (٦٨٣٠)، قال ابن حجر: «والمعنى: أنّ مَن فعل ذلك فقد غرّر بنفسه وبصاحبه وعرّضهما للقتل» فتح الباري (١٥٠/١٢).

(٥) شرح النووي على صحيح مسلم (٢٠٥/١٢).

(٦) المرجع السابق (٢٩/١).

(٧) منهاج السنة النبوية (٥٣٠/١).

وقد يكون ذلك بانتخاب أعيانهم وأهل الحلّ والعقد منهم في مواطنهم ودوائرهم، ثم يختار كلُّ أهلِ بلدٍ منهم الصّفوةَ، ثم تجتمع مجالسُ الصّفوة مِن البلدان في مجمعٍ واحدٍ لاصطفاء الأمير العام للمؤمنين.

واختيارُ أهل الحلِّ والعقد في بلدانهم أو قراهم أو أحيائهم أو حاراتهم يكون مِن قِبَل المؤهّلين لمعرفة أهل الحلِّ والعقد فيها، وقد يتم هذا تلقائيًا باجتماعات تُعقد لهذه الغاية، أو يتمّ بصورةٍ أخرى.

ويمكن تنظيمُ مجالس شورى محليّة عامّة للأمور الإدارية والسياسية، يكون أعضاؤها المختارون في قبل القاعدة الشّعبية هم أهلَ الحلِّ والعقد، في القضايا الخاصة بدوائر كلمتهم المسموعة، ومشورتهم المقبولة، وعن طريق هذه المجالس مع المجالس الشورى الأخرى التّخصصية يتم انتخاب أمير المؤمنين أو رئيس الدّولة»[1].

- **اختيار الحاكم عن طريق الشعب مباشرة،** ومما يماثله في الوقت الحالي التصويت والانتخاب.

ومما يماثله من وقائع التاريخ ما فعله عبد الرحمن بن عوف ﷺ عندما انحصر أمر الخلافة في عثمان وعليّ ﷺ، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «جعل أهل الشورى الأمر إلى عبدالرحمن بن عوف ليجتهد للمسلمين في أفضلهم ليوليه، فنهض عبدالرحمن بن عوف ﷺ يستشير الناس ويجمع رأي المسلمين برأي رؤوس الناس وأقيادهم جميعًا وأشتاتًا، مثنى وفرادى، ومجتمعين سرًّا وجهرًا، حتى خلص إلى النساء المخدّرات في حجابهن، وحتى سأل الولدان في المكاتب، وحتى سأل من يرد من الركبان والأعراب إلى المدينة في مدة ثلاثة أيام بلياليها، فلم يجد اثنين يختلفان في تقديم عثمان بن عفان»[2].

وقد جُعل حق اختيار الحاكم في يد الشعب لضمان جعل هذه السلطة الخطيرة في يد مَن هو أهلٌ لها ممن يُؤتمن عليها، وبذلك تُحفظ حقوق البلاد والعباد.

فمنصِبُ الحاكم ليس امتيازًا ولا خصوصيةً لفرد أو جماعة، وإنّما هي مهامٌ يجب القيام بها على الوجه الذي قرّرها الشرع، ومن هنا ظهر في كلام أهل العلم والمتخصصين بالسياسة الشرعية ما يعرف باسم: واجبات الحكام، أو حقوق المحكومين.

> **كفلت الشريعة الإسلامية للشعب حقّ اختيار من ينوب عنه ويتولى إدارة شؤونه، سوا عن طريق نوابه من أهل الحل والعقد، أو بطريق الانتخاب المباشر**

الركيزة الثانية: حق المشاركة في صياغة نظام الحكم:

لذا فإنه شريكٌ في صياغة نظام الحكم، واختيار الأنسب من القوانين والأنظمة التي تحكمه، وهذا الحق نابع من أنّ السلطة للشعب، وأنّ الشعب هو منبع السلطات، ويدل عليه:

١. أنَّ اللهَ تعالى وجّه الخطابَ للأمّة في مجموعها في قضايا الشّأن العام؛ مما يدلُّ على أنَّ الأمرَ أمرُها وأنّ السّلطانَ سلطانُها، وأنّ الشأنَ شأنُها.
٢. استشارة النّبي ﷺ لأصحابه في جلّ الأمور، العسكرية منها وغير العسكرية.
٣. تكليف الأمّة بمجملها بالقيام بأمور الدّين، كالجهاد، والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر.
٤. أنّ الأمّة هي من تختار أهل الحلّ والعقد لينوبوا عنها.
٥. أنَّ من مسؤوليات الأمّة اختيار الحاكم كما تقدّم، ومتابعة عمله ونصيحته والاحتساب عليه وعزله كما سيأتي..

قال الشيخ عبد الوهاب خلّاف: «دعائم الحكومة في الإسلام هي الشّورى، ومسؤوليةُ أولي الأمر واستمدادُ الرئاسة العليا مِن البيعة العامة، وهذه دعائم تعتمد عليها كلُّ حكومةٍ عادلة؛ لأنَّ مرجعَها كلِّها أنْ يكون أمرُ الأمّة بيدها، وأن تكون هي مصدرَ السّلطات، وقد قضت الحكمةُ أنْ تُقرَّر هذه الدّعائمُ غيرَ مفصّلة؛ لأنّ تفصيلَها مما يختلف باختلاف الأزمان والبيئات، فالله أمر بالشورى، وسكت عن تفصيلِها؛ ليكون ولاةُ الأمر في كلِّ أمّة في سَعةٍ مِن وضع نظمِها بما يلائم حالَها، فهم الذين

(١) كواشف زيوف، لعبد الرحمن حبنّكة الميداني ص (٦٩٧).
(٢) البداية والنهاية (١٦٤/٧).

يقرّون نظامَ انتخابِ رجالها، والشرائط اللازمة فيمن يُنتخب، وكيفيةَ قيامهم بواجبهم، وغير ذلك مما تتحقق به الشورى، ويُتوصل به إلى الاشتراك في الأمر اشتراكًا يحقّق أمرَ المسلمين شورى بينهم»[١].

وقال د. وهبة الزحيلي: «قال الرازي والإيجي وغيرهما: إنّ الأمّة هي صاحبة الرئاسة العامة»[٢].

> **السُّلطة للشعب، والشَّعب مصدر السُّلطات؛ لذا فإنه شريك في صياغة نظام الحكم واختيار الأنسب من القوانين والأنظمة التي تحكمه**

الركيزة الثالثة: وجوب حماية النظام السياسي الشرعي من الخروج عليه وتغييره بالقوة:

أحكام الشريعة كلّها مبنية على الحقّ والعدل، والحفاظ على حقوق جميع الأطراف، وكما أنّ الشريعة أعطت الأمّة حقّ اختيار الحاكم وحقّ المشاركة في صياغة نظام الحكم، فقد أمرت بالمحافظة على هذا النظام -القائم وفق المبادئ المعتبرة في الشريعة وحمايته؛ فمنعت من كلّ ما يهدّده أو يقوّضه، ومن ذلك:

١. تحريم التغلّب رغمًا عن إرادة الأمّة وتجريمه: فإذا كان للشعب حاكم عادل يقوم بما يجب عليه فيحرم قهره وأخذ السلطة منه بالقوة:

وقد اتفق العلماء على تحريم التغلُّب ابتداءً وتجريم فاعله.

قال ابن حجر الهيتمي: «المتغلّبُ فاسقٌ مُعاقَب، لا يستحقّ أن يُبشّر ولا يُؤمر بالإحسان فِيما تغلّب عليه، بل إنّما يسْتَحق الزّجر والمقَت، والإعلام بقبيح أفعاله وفساد أحواله»[٣].

وقال أبو المعالي الجويني: «فإنّ الذي ينتهض لهذا الشّأن لو بادره من غير بيعةٍ وحاجة حافزة، وضرورة مستفزّة، أشعر ذلك باجترائه، وغلوِّه في استيلائه، وتشوُّفه إلى استعلائه، وذلك يَسِمُه بابتغاء العلوِّ في الأرض بالفساد»[٤].

والسبب في ذلك: أنّ المتغلّب مغتصبٌ لحقّ الأمة في اختيار مَن يحكمها، ومغتصبٌ لمنصب ليس له.

٢. إيجاب طاعة الحاكم الشرعي وتحريم الخروج عليه:

فمن ثبتت له الإمامة فلا يجوز الخروج عليه ونزعها منه رغمًا عن إرادة الشعب.

قال أبو يعلى: «وإذا قام الإمام بحقوق الأمّة وجب له عليهم: الطاعة، والنصرة، ما لم يوجد من جهته ما يخرج به عن الإمامة»[٥].

وقال السرخسي: «فإن كان المسلمون مجتمعين على واحد، وكانوا آمنين به، والسبيل آمنة، فخرج عليه طائفة من المسلمين فحينئذ يجب على من يقوى على القتال أن يقاتل مع إمام المسلمين الخارجينَ؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي﴾ [الحجرات: ٩]، والأمر حقيقةً للوجوب، ولأنّ الخارجين قصدوا أذى المسلمين وإماطة الأذى من أبواب الدين، وخروجهم معصية، ففي القيام بقتالهم نهي عن المنكر وهو فرض، ولأنّهم يهيجون الفتنة قال ﷺ: (الفتنة نائمة لعن الله مَن أيقظها)»[٦].

والشرع حين يمنع الخارج من الخروج عن الشرعية فإنّه لا يكتفي بالمنع من الخروج استقلالاً بل يمنع أيضًا من المشاركة فيه أو المساعدة، ويجعل المقاتل في صفه أو المدافع عنه باغيًا، كما في قول الرسول ﷺ لعمار بن ياسر: (ويح عمار، تقتله الفئة الباغية، يدعوهم إلى الجنة، ويدعونه إلى النار)[٧].

فجعل النبي ﷺ دعوة عمار إلى التمسك بالشرعية والمحافظة عليها دعوة إلى الجنة، ودعوة مخالفيه التي تمثل دعوة إلى الخروج عن الشرعية دعوة إلى النار.

٣. وجوب حماية النظام السياسي من الانقلاب عليه وتغييره بالقوّة:

(١) السّياسة الشّرعية، لعبد الوهاب خلاف، ص (٣٤).
(٢) الفقه الإسلامي وأدلته، للدكتور وهبة الزحيلي (٦١٦٩/٨).
(٣) الصواعق المحرقة، لابن حجر الهيتمي (٦٢٧/٢).
(٤) غياث الأمم، للجويني (٣٢٦/١).
(٥) الأحكام السلطانية للفرّاء (ص ٢٨).
(٦) الأحكام السلطانية (٢٨/١).
(٧) أخرجه البخاري (٤٤٧)، وينظر: الفقه السني في تعامله مع الخروج عن الشرعية، محمد بن شاكر الشريف، مجلة البيان، العدد ٣٥٢.

- فعن عرفجة قال: قال رسول الله ﷺ: (مَن أتاكم وأمركم جميعٌ على رجلٍ واحد، يُريد أن يشقَّ عصاكم، أو يفرِّق جماعتَكم، فاقتلوه)[١].
- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال ﷺ: (سيكونُ خلفاء فيَكثُرون، قالوا: فما تأمرنا؟ قال: فُوا بِبيعةِ الأولِ فالأول، أعطوهم حقَّهم، فإنَّ الله سائِلُهم عمَّا استرعاهم)[٢].

قال النووي: «إذا بويع لخليفة بعد خليفة فبيعة الأول صحيحة يجب الوفاء بها، وبيعة الثاني باطلة يحرم الوفاء بها»[٣].

٤. بل يجب على الأمّة أن تقاتل أهل البغي والخروج إذا قاتلوا الإمام العادل حتى يردّوهم، ويحفظوا نظام الحكم من اعتدائهم:

قال ابن تيمية: «إذا طلبهم السلطان أو نوّابه لإقامة الحدّ بلا عدوان فامتنعوا عليه فإنّه يجب على المسلمين قتالهم -باتفاق العلماء- حتى يقدر عليهم كلهم»[٤].

٥. تحذير الأمّة من عاقبة العدوان على الحاكم العادل:

وليس العدوان المحرّم محصورًا في الخروج عليه بالسلاح، بل يشمل كلّ ما من شأنه إضعاف الحاكم وإضعاف سلطته، كالسخرية به، والاستهانة بأعماله أو قراراته؛ فقد توعد الرسول ﷺ فاعله بالهوان وعدم الهناءة في الحياة.

فعن أبي بكرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَن أهانَ سلطانَ اللهِ أهانَه الله»[٥].

وعن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: (إنَّ من إجلالِ الله إكرامَ ذي الشيبةِ المسلم، وحاملِ القرآنِ غيرِ الغالي فيه والجافي عنه، وإكرام ذي السُّلطانَ المُقسِط)[٦].

فكيف بمن خرج على الحاكم الشرعي، أو انقلب؟

كما أعطت الشريعة للشعب حقّ اختيار الحاكم وحقّ المشاركة في صياغة نظام الحكم، فقد أمرته بالمحافظة على النظام السياسي الشرعي وحمايته وفق المبادئ المعتبرة في الشريعة؛ فمنعت من كلّ ما يهدّده أو يقوّضه

الركيزة الرابعة: حقّ مناصحة الحاكم والاحتساب عليه:

فالمهام الملقاة على عاتق الحاكم كبيرة وجليلة، وهو بشر يعتريه النقص والخطأ، وقد تستهويه السلطة والقوّة، أو يطرأ عليه الضعف ونحو ذلك؛ فيؤدّي ذلك إلى ظهور أخطاء أو تقصير، فيأتي دور الشعب في مناصحته وتسديده؛ إعانةً له على القيام بمهامّه، وحفاظًا على مؤسسة الحكم أن تنحرف عن دورها المنوط بها أو أن يكون فيها مَن ليس أهلاً لها، وصولاً إلى الإنكار والاحتساب عليه في حال عدم قبوله النصح.

» ففي المناصحة:

حديث تميم الداري أنّ النبي ﷺ قال: (الدِّينُ النَّصيحة قلنا: لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمةِ المسلمين وعامَّتهم)[٧]. وعن زيد بن ثابت أنّ رسول الله ﷺ قال: (ثلاثُ خِصال لا يَغلُ عليهنَّ قلبُ مسلم أبدًا: إخلاصُ العمل لله، ومناصحةُ ولاة الأمر، ولزومُ الجماعة، فإنَّ دعوتَهم تُحيطُ مِن ورائِهم)[٨].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إنَّ الله يرضى لكم ثلاثًا، ويسخط لكم ثلاثًا: يرضى لكم أن تعبدوه ولا تُشركوا به شيئا، وأن تَعتصموا بحبلِ الله جميعًا ولا تفرَّقوا، وأن تُناصِحوا من ولَّاه الله أمركم ...)[٩].

(١) أخرجه مسلم (١٨٥٢).
(٢) أخرجه البخاري (٣٤٥٥)، ومسلم (١٨٤٢).
(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (٢٣١/١٢).
(٤) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (٣١٧/٢٨).
(٥) أخرجه الترمذي (٢٢٢٤).
(٦) أخرجه أبو داود (٤٨٤٣).
(٧) أخرجه مسلم (٩٥).
(٨) أخرجه أحمد (٢١٥٩٠)، ومعنى: (يغلُّ عليهن قلب مسلم): أنّ المؤمن لا يخون في هذه الأشياء الثلاثة، ولا يدخله ضغن يزيله عن الحق حتى يفعل شيئًا من ذلك.
(٩) أخرجه أحمد (٨٧٩٩).

ركائز دور الشعوب في المنظومة السياسية الإسلامية

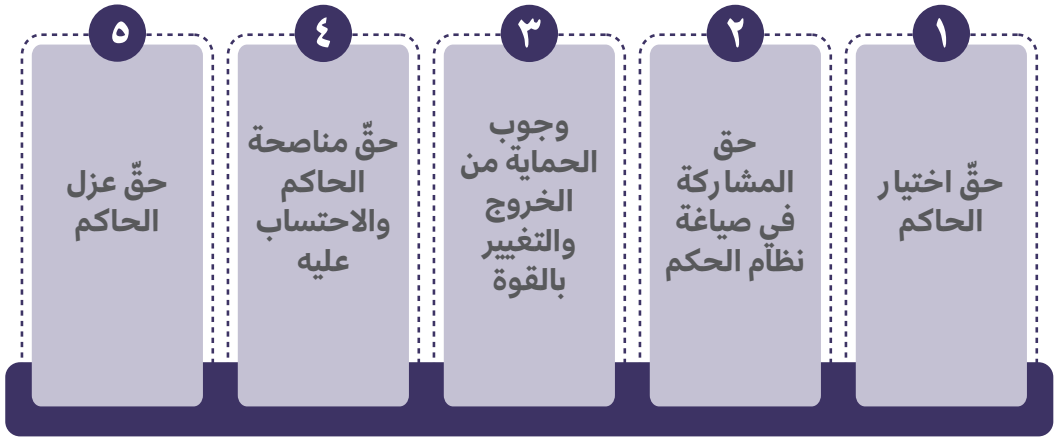

فصيغ العموم في هذه الأحاديث تدلُّ على أنّ نصيحة الحاكم وتسديده حقٌّ مكفول لجميع الناس دون استثناء، بل إنّ الشارع قد جعلها من الدين، ومما يرضي الله تعالى.

قال ابن حجر: «والنَّصيحةُ لأئمَّة المسلمين: إعانَتُهم على ما حمَّلوا القيامَ به، وتنبيهُهم عند الغفلة، وسدُّ خلَّتهم عند الهفوة، وجمعُ الكلمة عليهم، وردُّ القلوب النَّافرة إليهم، ومِن أعظم نصيحتهم دفعُهم عن الظلم بالتي هي أحسن»[١].

» وفي الإنكار والاحتساب:

حديث أم سلمة ﵂ عن النبي ﷺ أنّه قال: (إنَّه يُستعمل عليكم أمراء، فَتَعرفونَ وتُنكرون، فمن كَرِه فقد برئ، ومن أنكر فقد سَلِم، ولكن من رَضي وتَابع)[٢].

وعن ابن مسعود ﵁، أن رسول الله ﷺ قال: (ما مِن نبي بَعثه الله في أُمة قبلي إلا كان له من أمته حواريُّون، وأصحابٌ يأخذونَ بسُنَّته ويقتدون بأمره، ثم إنها تَخلُف من بعدهم خُلُوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يُؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراءِ ذلك من الإيمان حبَّة خَردل)[٣].

قال الإمام عبد الرحمن بن أبي بكر الصالحي الحنبلي: « كان من عادة السلف الإنكار على الأمراء والسلاطين، والصدع بالحقّ، وقلّة المبالاة بسطوتهم؛ إيثارًا لإقامة حقّ الله سبحانه على بقائهم، واختيارهم لإعزاز الشرع على حفظ مُهَجهم، واستسلامًا للشهادة إن حصلت لهم»[٤].

لم يكتف الشارع بجعل الإنكار والاحتساب على الحاكم الظالم أو المخالف للشرع حقًا لعامة الناس فحسب، بل عدَّه جهادًا، ولو أدّى إلى التضحية بالنفس في سبيل ذلك

وقال عبد القاهر البغدادي: «ومتى زاغَ عن ذلك كانت الأمّةُ عيارًا عليه [أي: مشرفين ومراقبين] في العدول به مِن خطئه إلى صوابه، أو في العدول عنه إلى غيره، وسبيلهم معه فيها كسبيله مع وزرائه

(١) فتح الباري (١٣٨/١).
(٢) أخرجه مسلم (١٨٥٤).
(٣) أخرجه مسلم (٨٠).
(٤) الكنز الأكبر من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (ص ٢٠١)

وقضاته وعماله وسعاته، إن زاغوا عن سننه عَدل بهم أو عدل عنهم»[١].

فالإنكار والاحتساب على الحاكم لم يكتفِ الشرعُ بجعله حقًا لعامة الناس، بل عدَّه جهادًا، ولو أدّى إلى التضحية بالنفس في سبيل ذلك:

ففي الحديث السابق: (فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ).

وعَنْ جَابِرٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (سيدُ الشُّهداء حمزةُ بن عبد المطلب، ورجلٌ قالَ إلى إمامٍ جائرٍ فأمره ونهاه فقتله)[٢].

> **«الأدبُ مع الأمراء واللطف بهم ووعظهم سرًّا، وتبليغهم ما يقول الناس فيهم لينكفّوا عنه، وهذا كلّه إذا أمكن ذلك، فإن لم يُمكن الوعظ سرًّا والإنكار فليفعله علانيةً؛ لئلّا يضيع أصل الحق»**
>
> **الإمام النووي رحمه الله**

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: (أفضلُ الجهادِ كلمةُ عدلٍ عند سلطانٍ جائر)[٣].

قال الغزالي رحمه الله: «فهذه كانت سيرة العلماء وعادتهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقلّة مبالاتهم بسطوة السلاطين؛ لكونهم اتَّكلوا على فضل الله تعالى أن يحرسهم، ورضوا بحكم الله تعالى أن يرزقهم الشهادة، فلما أخلصوا لله النيَّة؛ أثّر كلامهم في القلوب القاسية فليَّنها وأزال قساوتها. وأمّا الآنَ فقد قيَّدتِ الأطماعُ ألسن العلماء فسكتوا، وإن تكلموا لم تساعد أقوالَهم أحوالُهم فلم ينجحوا، ولو صَدَقوا وقصدوا حقَّ العلم لأفلحوا، ففساد الرعايا بفساد الملوك، وفساد الملوك بفساد العلماء، وفساد العلماء باستيلاء حبِّ المال والجاه، ومن استولى عليه حبّ الدنيا لم يقدر على الحسبة على الأراذل، فكيف على الملوك والأكابر؟»[٤].

وسير أهل العلم مع الحكام في النصيحة والإنكار والاحتساب أكثر من أن تُورد في هذا المقام. وقد حفظت لنا كتب العقيدة والسير والتاريخ الآثار العظيمة لمناصحة المسلمين وإنكارهم على الحكام، سواء في الحفاظ على الدين من العبث والتحريف، أو البلاد من الضياع، أو سائر أمور الدنيا من الفساد.

وقال النووي رحمه الله: «الأدبُ مع الأمراء واللطف بهم ووعظهم سرًّا، وتبليغهم ما يقول الناس فيهم لينكفّوا عنه، وهذا كلّه إذا أمكن ذلك، فإن لم يُمكن الوعظ سرًّا والإنكار فليفعله علانيةً؛ لئلّا يضيع أصل الحق»[٥].

الركيزة الخامسة: حقّ عزل الحاكم:

قد يطرأ على الحاكم ما يمنع استمرار ولايته، كالكفر أو الفساد والظلم الشديدين، ولا يستجيب للنصح، فعندها يعود الحقّ للشعب في النظر في حاله، فإن رأى عزله وتنصيب مَن هو خير منه فذاك حقّه.

قال القاضي عياض: «لا خلاف بين المسلمين أنّه لا تنعقد الإمامةُ للكافر، ولا تستديم له إذا طرأ عليه، وكذلك إذا ترك إقامة الصلوات والدعاء إليها... فإذا طرأ مثل هذا على والٍ مِن كفرٍ أو تغير شرع أو تأويل بدعة، خَرَج عن حكم الوِلاية وسقطت طاعته، ووجب على الناس القيامُ عليه وخلعُه، ونصبُ إمامٍ عدل أو والٍ مكانه إن أمكنهم ذلك»[٦].

وقال الإيجي: «وللأمة خلع الإمام وعزله بسببٍ يوجبه، وإن أدّى خلعه إلى الفتنة احتمل أدنى المضرتين»[٧].

وقد ذكر الجويني رحمه الله: أنّ الحاكم «إذا تواصل منه العصيانُ، وفشا منه العدوانُ، وظهر الفسادُ، وزال السدادُ، وتعطّلت الحقوق والحدود، وارتفعت الصيانة، ووضحت الخيانة، واستجرأ

(١) أصول الدين، للبغدادي ص (٣٠٨).
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك، (٤٨٨٤).
(٣) أخرجه أبو داود (٤٣٤٤)، والترمذي (٢١٧٤).
(٤) إحياء علوم الدين، للغزالي (٣٥٧/٢).
(٥) شرح صحيح مسلم، للنووي (١١٨/١٨).
(٦) إكمال المعلم بفوائد مسلم، للقاضي عياض (6/246).
(٧) المواقف، لعضد الدين الإيجي (٥٩٥/٣).

الظَلَمَة، ولم يجد المظلوم منتصفًا ممن ظلمه، وتداعى الخلل والخطل إلى عظائم الأمور، وتعطيل الثغور؛ فلا بدّ من استدراك هذا الأمر المتفاقم».

وذكرَ أنّ هذا الاستدراك يكون بعزله وتنصيب إمام آخر مكانه، فإن كان هذا الأمر سيترتب عليه إراقة الدماء ومصادمة أحوال جمّة الأهوال فينظر:

فإن كانت المفاسد أقلّ من مصلحة عزله فإنّه يُعزل ويجب احتمال هذه الأهوال المتوقّعة.

وإن كانت المفاسد أعظم فيتعيّن الاستمرار على الأمر الواقع»[1].

وكلام أهل العلم صريح في أن عزل الحاكم حق للشعب، يقوم به في حال الحاجة إليه بشروطه.

والذي يتولى العزلَ عند تحقّق السبب المعتبر شرعًا هم مَن يتولّون العقدَ، وهم أهلُ الحل والعقد في الأمّة عادة، قال الإمام الجويني في «غياث الأمم»: «فإن قيل: فمن يخلعه؟ قلنا: الخلع إلى مَن إليه العقد»[2].

وفي حقّ العزل هذا حماية لنظام الحكم من أن يبقى فيه مَن لا يستحقه ومن لا يؤتمن عليه، وحماية للدولة من أن ينحرف بها هذا الحاكم.

كلام أهل العلم صريح في أن عزل الحاكم حقٌّ للشعب، يقوم به في حال الحاجة إليه بشروطه، وفي حقّ العزل هذا حماية لنظام الحكم من أن يبقى فيه مَن لا يستحقه ومن لا يؤتمن عليه، وحماية للدولة من أن ينحرف بها هذا الحاكم

وأخيرًا..

فهذه النصوص وأقوال أهل العلم تكشف عن نظام إسلامي متكامل في التعامل مع مسألة الحكم، يجمع بين حق الشعب وحق الحاكم، بطريقة تضمن حقوق الطرفين دون إفراط ولا تفريط، كما تدلّ دلالة واضحة على أنّ الشعب غير منفصل عن شؤون الدولة وإدارتها، وأنّ الحاكم ليس صاحب سلطة مطلقة لا يمكن تغييرها ولا التعامل معها، وأن مهمته لا تنحصر في الخضوع والرضوخ وتنفيذ الأوامر ولو كان الحاكم مرتكبًا لجميع أنواع الظلم والبطش ومخالفة الدين، فعلى الشعب أن يعي حقوقه، ويعمل للحصول عليها والدفاع عنها، ويُحسن اختيار ممثّليه ويقف ورائهم بالتأييد والنصح والتسديد؛ حتى يستقيم أمر الدولة وينهض الجميع بالحضارة والعمران.

(١) غياث الأمم (1/105).
(٢) غياث الأمم، (1/126).

الرزق المنسيُّ.. عطايا إلهية نغفل عنها

د.حسان نقرش (*)

غمر الله سبحانه وتعالى عباده بالنعم، وسخَّر لهم ما في السماوات من شمس وقمر ونجوم وما في الأرض من دواب وشجر وجبال وجمادات وموارد، ليعمروا الأرض ويستعينوا بها في منافعهم ومصالحهم، ويحمدوه ويشكروه على ما تفضَّل وأنعم، ونوَّع هذه النعم تنويعًا كبيرًا حتى إنَّ العقل ليعجز عن حصر هذه النعم واستحضارها كلِّها، وهذا المقال يسلِّط الضوء على جانبٍ مهمٍّ من نعم الله وعطاياه كثيراً ما نغفل عنه وننساه.

مدخل:

نِعمُ الله تعالى على عباده لا تُحصى، وأخصُّ نعمِه سبحانه بعد نعمة إيجادهم هي نعمةُ رزقه لهم، فهي من أظهر مضامين ربوبيته تبارك وتعالى لمخلوقاته مسلمهم وكافرهم، لذلك تنوعت أساليب الخطاب القرآني في عرض التذكير بهذه النعمة، حيث وردت كلمة «رزق» وما يتفرع عنها في القرآن الكريم (١٢٣) مرة، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٠]، مُنبهاً عباده على صورة من صور تكريمه لهم، وكقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم﴾ [العنكبوت: ٦٢]، مذكرًا لهم بتدبير وتقدير أرزاقهم.

وكذلك تنوعت أساليب الخطاب القرآني في عرض الاستدلال بهذه النعمة على استحقاقه جلَّ جلاله للعبادة وإفراده بها، فمنها الاستفهام التقريري، كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١]، ومنها الحصر كقوله عز وجلَّ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]، مُستدلاً سبحانه فيها بأن القادر على الإنعام والرزق -ومن باب أولى القادر على الخلق والإحياء والإماتة والتدبير- هو المستحق لعبادة المخلوق له.

(*) دكتوراه في الدعوة والثقافة الإسلامية.

لو وقف الإنسان متأملاً متدبرًا في أحوال نعمة الرزق، وفي صنوف تدبير الله جلَّ في علاه لأرزاق مخلوقاته؛ توسعةً وتقتيرًا، بسطًا وقدرًا، رفعًا وخفضًا لاستشعر عظمَ إنعام الله عز وجلَّ على خلقه، فيحمدَه على هذه المنَّة والتَّكريم

ولو وقف الإنسان متأملاً متدبرًا في أحوال هذه النعمة العظيمة، وفي صنوف تدبير الله جلَّ في علاه لأرزاق مخلوقاته؛ توسعةً وتقتيرًا، بسطًا وقدرًا، رفعًا وخفضًا لاستشعر المتأمل عظمَ إنعام الله عز وجلَّ على خلقه بهذه النعمة العظيمة، فيحمدَه المؤمن على هذه المنة وهذا التكريم، بقوله: (الحَمدُ لله الذي أطعَمَنا وسَقانا وكَفانا وآوانا، فكم مِمَّن لا كافيَ لَهُ ولا مُؤوي)[1]، ويُبهَتَ بها المعرض عن الاستجابة لنداء اللَه تعالى ورسوله ﷺ، كما أخبرنا تقدَّست ذاته بذلك: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ [الملك: ٢١].

ونعمة الرزق صورها كثيرة وأحوالها متعددة، تبعًا لتعدد المناظير والاعتبارات عند النظر إليها؛ ومنها ما سيتناوله هذا المقال من جهة كونه قيمة إيجابية أو سلبية.

الوقفة الأولى: ماهية الرزق:

عُرف الرزق بأنه: «كل ما يُنتفع به، سواءً كان ماديًّا كالأموال من ذهب وفضة وحيوان وزروع وثمار وعقار، وكل ما هو مأكول ومطعوم وملبوس ومشروب ومسكون ونحو ذلك، أو كان معنويًّا كالمعارف والعلوم والمنزلة والجاه والسلطان والعقل والذكاء وحسن الخلق ونحو ذلك، وسواءً كان ما ينتفع به في الدنيا وهو ما ذكرناه، أو ينتفع به في الآخرة وهو رضوان الله تعالى وثوابه ونعيم الجنة، ونحو ذلك مما أخبرنا الله تعالى به»[2].

ومن الرزق ما له ماهية إيجابية، أي أنه حقيقة قائمة مثبتة ملموسة، تتمثل في العطاءات المباشرة، وصوره أكثر من أن تحصى، مثل: أنواع الكسب الحلال، والراتب الشهري، والحوافز والمكافآت والهدايا المادية والمعنوية، والربح في التجارة، وإنتاج المحاصيل والزروع، والأجور على الأعمال، وإنجاب الأبناء، وغير ذلك.

ومن الرزق ما له ماهية سلبية، تتمثل في مفهوم المخالفة لما يضاد المفهوم الإيجابي لحقيقة الشيء من مثل ما يصرفه سبحانه وتعالى عن الإنسان من النفقات الكثيرة والخسائر في المصاريف والابتلاء بإنفاق المال فيما لا طائل فيه أو لا منفعة فيه.

وهذا النوع من الرزق -أي ما اتصفت ماهيته بالطابع السَّلبي- كثيرًا ما يُنسى؛ فلا يدركه البعض أو على الأقل لا يستحضر وجوده وآثاره.

وصور الرزق ذات المفهوم السلبي متعددة أيضًا، من أمثلتها: السلامة من الأمراض، ونجاة الإنسان من المخاطر والحوادث والنكبات، وتوفير الإنسان لجهده ووقته وماله، وغير ذلك.

من الرزق ما له ماهية إيجابية ملموسة، تتمثل في العطاءات المباشرة، ومن الرزق ما له ماهية سلبية، تتمثل فيما يصرفه سبحانه وتعالى عن الإنسان من الأمراض والمخاطر والنفقات الكثيرة وسائر الابتلاءات، وهذا النوع كثيرًا ما يُنسى؛ فلا يُستحضر وجوده ولا يُنتبه لآثاره

الوقفة الثانية: الأدلة الشرعية على اعتبار المفهوم السلبي للرزق:

ورد في الأدلة الشرعية الحديث عن نعمة الرزق بما يثبت المفهوم السلبي للرزق من عدّة وجوه:

الوجه الأول: أنَّ الله سبحانه أخبرنا بامتنانه وتفضُّله على عباده جميعًا بنعم كثيرة، غير مقدور على إحصائها «لكثرتها وعظمها في الحواس والقوى، والإيجاد بعد العدم، والهداية للإيمان وغير ذلك»[3]، فقال سبحانه: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨]. وهذا عموم يشمل كل أنواع النعم بجميع أنواعها وصورها، بما في ذلك الحماية والوقاية من الأمراض والأضرار، وما كان منها من أصل الخلقة ومن غير كسب العبد.

(١) أخرجه مسلم (٢٧١٥).
(٢) السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد، لعبد الكريم زيدان، ص (٢٦٤).
(٣) تفسير ابن عطية (٣/٣٤٠).

الوجه الثاني: مِن أظهر النعم ذات القيمة السلبية نعمتا الصحة والفراغ، لأنهما ملازمتان لأكثر العباد، والفاقد لهما قليل، وقد نبَّه ﷺ على هذا المعنى بقوله: (نِعمَتانِ مَغبُونٌ فيهما كثيرٌ مِن الناس: الصِّحَّةُ والفَراغ)[١].

فمن حرصَ على استثمار صحته ووقته وملء أوقات فراغه فيما يرضي الله ورسوله ﷺ فقد أوتي الحكمة، ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

ومن فرط في هاتين النعمتين -مع كونهما فرصة عظيمة للعاقل والبصير- وأسرف حالة عافيته ووقت فراغه في اللهو واللعب، بل وربما فيما حرم الله ورسوله ﷺ، فهو مغبونٌ، وسيندم ويتحسَّرُ يوم القيامة، لعدمِ استغلاله لهما بما ينفعه ويُفيده.

الوجه الثالث: تذكير النبي ﷺ بأهمية تقدير دور النعم العامة ذات المفهوم السلبي، كخلوِّ الإنسان من الخوف والمرض والجوع، مما يلبي حاجات الإنسان الأساسية من أمن وصحة وغذاء فقال ﷺ: (مَن أَصبَحَ منكُم آمِنًا في سِرْبِهِ، مُعَافًى في جَسَدِهِ، عندَهُ قُوتُ يومِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَت لَهُ الدنيا)[٢].

وقال المناوي رحمه الله مبينًا معنى الحديث: «يعني: من جمع الله له بين عافية بدنه، وأمن قلبه حيث توجه، وكفاف عيشه بقوت يومه، وسلامة أهله، فقد جمع الله له جميع النعم التي مَن مَلكَ الدنيا لم يحصل على غيرها، فينبغي أن لا يستقبل يومه ذلك إلا بشكرها، بأن يصرفها في طاعة المنعم، لا في معصية، ولا يفتر عن ذكره»[٣].

الوجه الرابع: نصُّه ﷺ على أحد أنواع الرزق -بمفهومه السلبي- وهو استجابة الدعاء بغير ما يدعو به الشخص؛ حيث إنَّ إحدى صور استجابة الدعاء الذي يدعو به المسلم صرف السوء والمصائب عن العبد، قال ﷺ: (ما مِن مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثمٌ ولا قطيعة رحم، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن تعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها) قالوا: إذا نُكثر، قال: (الله أكثر)[٤].

يقول ابن حجر رحمه الله شارحًا الحديث: «كل داعٍ يُستجاب له، لكن تتنوّع الإجابة، فتارةً تقع بعينِ ما دعا به، وتارةً بِعِوَضِه[٥]. وقد ورد في ذلك حديث صحيح، أخرجه الترمذي والحاكم من حديث عبادة بن الصامت رفعه: (ما على الأرض مُسلم يدعو بدعوةٍ إلا آتاهُ الله إياها، أو صرفَ عنه من السُّوءِ مثلها) ولأحمد من حديث أبي هريرة: (إما أن يُعجِّلها له، وإما أن يدَّخرها له)»[٦].

> **«من جمع الله له بين عافية بدنه، وأمْن قلبه حيث توجه، وكفاف عيشه بقوت يومه، وسلامة أهله، فقد جمع الله له جميع النعم التي مَن مَلكَ الدنيا لم يحصل على غيرها، فينبغي أن لا يستقبل يومه ذلك إلا بشكرها»**
>
> المناوي رحمه الله

الوقفة الثالثة: صور وأمثلة للرزق بمفهومه السلبي:

من رحمة الله بعباده وتفضله عليهم أن قدَّر لهم عددًا كبيرًا من أنواع الرزق بمفهومه السلبي، ومن أبرز أمثلة هذه الأنواع -على سبيل التمثيل لا الحصر-:

❋ النوع الأول: سلامة الحواس من النقص:

من نعم الله تعالى على الإنسان أن خلقه في أحسن تقويم، فمن لم يُبتلَ بصورة من صور نقص الخلقة، كالعمى والصمم والبكم والعرج والإعاقات الخلقية الأخرى، فقد رُزق رزقًا عظيمًا وخيرًا كبيرًا، حيث إن وجود بعض هذه العلل خِلقةً أو إصابةً يترتب عليها كثير من الصعوبات والتحديات الحياتية والنفقات وهدر الأوقات التي يسلم منها الإنسان المعافى من مظاهر النقص المذكورة.

❋ النوع الثاني: حفظ الوقت من الهدر:

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٢).
(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٤٦).
(٣) فيض القدير، للمناوي (٦٨/٦).
(٤) أخرجه أحمد (١١١٣٣).
(٥) أي تعويضه بأمر آخر لم يدع به لكن له فيه خير.
(٦) فتح الباري، لابن حجر (٩٥/١١).

التوجيهات الشرعية في باب الرزق بمفهومه السلبي

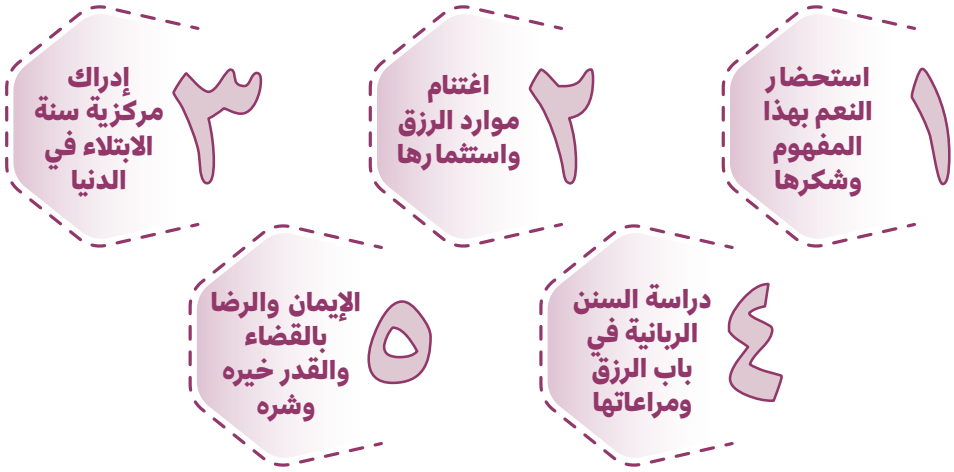

ترجع أهمية الوقت إلى كونه محط أعمال الإنسان ومجالها الزمني، لذلك أقسم الله سبحانه بأقسام الزمان من العصر والفجر والليل وغيرها، وعظَّم السلفُ أمر الوقت، وشددوا على أهمية صيانته وخطورة التفريط فيه، قال الحسن البصري: «ابنَ آدم إنما أنت أيام؛ كلما ذهب يوم ذهب بعضُك»[١]. حتى إنهم كانوا يحسبون أعمارهم بالأنفاس، «فإن كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفسية لا عوض لها»[٢].

فكل حفظ للوقت واستثمار إيجابي له فهو رزق -بمفهومه السلبي- للعبد، وكل تفريط بالوقت وإهدار له إضاعة لهذا الرزق، ومن الأمثلة التطبيقية لذلك:

- قدرة الدارس على الفهم والاستيعاب، والإنجاز بكفاءة، يوفّر الكثير من الوقت والجهد والإعادة وتبعات التأخير.
- انتهاء العامل أو الموظف من مهامه في وقت قصير يتيح له وقتًا إضافيًا للراحة أو لإنجاز مهام إضافية، وبالتالي التخفيف من الضغوط النفسية وضغوط العمل عنه، ويسلم بذلك من الاحتراق الوظيفي.

* النوع الثالث: نعمة السلامة من الأمراض:

من مظاهر ضعف المخلوق أن تعتريه أحوال التغير والنقص والمرض، فدوام الحال من المحال، فمن منَّ الله عليه بنعمة الصحة في النفس والبدن، والسلامة من الأمراض فقد أوتي خيرًا كثيرًا، لما يدفع الله تعالى عنه بتلك الحالة أنواعًا من الآلام وأشكالاً من الضغوط النفسية وأبوابًا من الإنفاق المالي، وضياع الأوقات، وقد وردت الإشارة لهذا المعنى، بقوله ﷺ: (نِعمَتان مَغبونٌ فيهما كثيرٌ مِنَ الناس: الصِّحَّةُ والفَراغ)[٣].

وها نحن نعاين الآثار المادية والمعنوية التي ترتبت على ظهور وباء كورونا، ولو وقف المرء وقفة تأملية في الآثار التي نتجت عن ظهور وباء كورونا وانتشاره في العالم، ومدى تضرُّر مصالح العباد، وحجم ما أُنفق على مستوى الدول من جهود ونفقات وأوقات في معالجة الوباء والتخفيف من أضراره لأدرك نعمة العافية والسلامة من الأمراض، وقيل في الحكمة: العافية الملك الخفي.

ومن الأمثلة التطبيقية لذلك:

- أن يكون المرء سليمًا من الأمراض المقعِدة أو المضعِفة عن العبادة والعمل والكسب.

(١) حلية الأولياء، لأبي نعيم (١٤٨/٢).
(٢) إحياء علوم الدين، للغزالي (٦/٦).
(٣) أخرجه البخاري (٦٤١٢).

» أن تكون حالة المريض الصحية مستقرة على نحو منضبط وفي حدود معقولة، وألا تتطور إلى حالة أسوأ أو مستوى أخطر.

» تقدير الله تعالى الشفاء للمريض بالإجراء الطبي الأدنى دون الحاجة للإجراء الطبي الأعلى.

لو تأمّل المرء في الآثار التي نتجت عن ظهور وباء كورونا وانتشاره في العالم، ومدى تضرُّر مصالح العباد، وحجم ما أُنفق على مستوى الدول من جهود ونفقات وأوقات في معالجة الوباء والتخفيف من أضراره، لأدرك نعمة العافية والسلامة من الأمراض

* النوع الرابع: نعمة السلامة من العقم أو عقوق الولد:

امتن الله سبحانه وتعالى على الإنسان بنعمة الولد، بل وفطره على حب الولد، فقال سبحانه: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦]، فإذا رُزق الإنسان بالولد، ولم يُحرم من هذه النعمة، فقد كسب الكثير من المصالح، لما دُفع عنه بذلك من السعي الحثيث والأخذ بالأسباب ابتغاء الذرية، كالتداوي وإجراء العمليات المتنوعة، ومتابعة العلاجات، وتكرار المراجعات للأطباء، وما يترتب على ذلك من صور الإنفاق المالي والهم والغم، بل وربما الخصومات بين الزوجين، وأحيانًا انتهاء العلاقة الزوجية.

ومن الأمثلة التطبيقية لذلك:

» مجيء الولد معافى في بدنه، ذا خلقة تامة، سليم الحواس، خاليًا من التشوهات والإعاقات، سببٌ لسكينة البيت وراحة الأسرة النفسية والمعنوية، وعدم الاضطرار لنفقات إضافية.

» هداية واستقامة الولد سبب للحياة الرغيدة لأسرته، وطمأنينة الوالدين، وراحتهم النفسية، ويزيل عنهم مخاوف العقوق وهم متابعته في فروضه وواجباته ومسؤولياته الدينية والدنيوية.

» سلوك الابن طريق طلب العلم وحفظ القرآن الكريم سبب في صرف الكثير من الشرور عن الوالدين، ببركة العلم والقرآن الكريم، وبما يثمره هذا التحصيل من فوائد وهداية، وفي المآل يكون ذلك النتاج في صحيفة أعمال الوالدين.

* النوع الخامس: نعم العافية من المصائب وأنواع الابتلاءات الأخرى:

من سنن الله ابتلاء عباده في الحياة الدنيا، قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢]، وبيّن سبحانه الأنواع الرئيسية للابتلاء بقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]، فكلُّ إنسان عافاه الله تعالى من نوعٍ أو أكثر من أنواع الابتلاء المذكورة فقد ربح وفاز وحصَّل من المصالح الدنيوية الشيء الكثير، لأن المصائب والبلاءات، كالفقر والخسائر التجارية والجوائح والحوادث والحرائق وظلم الطغاة ونحوها... لو وقعت على العبد لاستغرقت من الأموال والجهود والأوقات ما الله به عليم، ومن عُوفي فليحمد الله على هذه النعمة العظيمة، وقد كان من دعائه ﷺ: (اللهم إني أسألك المعافاة في الدنيا والآخرة)[1].

ومن رحمة الله تبارك وتعالى بعباده أن جعل إحدى صور استجابة دعاء العبد أن يصرف عنه من البلاء بقدر دعائه كما تقدم.

ومن الأمثلة التطبيقية لذلك:

» إصابة الإنسان بمصائب خفيفة بالمقارنة بغيره رغم وحدة الظروف.

» إصابة الإنسان بمصيبة خفيفة لأجل تحقيق نعمة خافية، كمن يتعثّر ويسقط ليتأخّر لحظة مرور سيارة تدهسه مثلاً.

» عدم ارتفاع الوفيات والإصابات والخسائر المالية في الحوادث والنكبات كالحرائق والحوادث والزلازل والسيول وغير ذلك.

» أن يقدر الله الخير للإنسان في غير مظنته أو فيما يظن أنه ضرر به، قال تعالى: ﴿عَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٨٥١).

النعم التي نغفل عنها في مقابل النعم التي نستحضرها

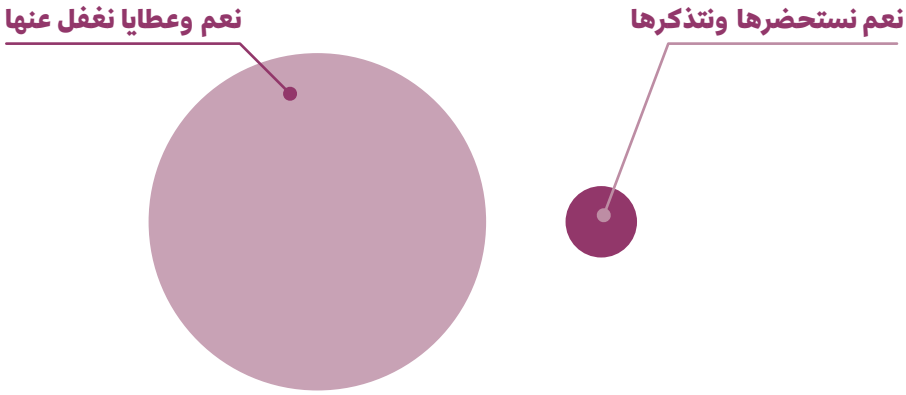

❋ النوع السادس: نعمة الرخص الشرعية:

من صور تيسير الله على عباده والتوسعة عليهم أن شرع أحكامًا اصطلح العلماء على تسميتها بـ «الرخصة»[1]، حيث يشرع للمكلف العمل بالرخص عند حصول المشقة المعتبرة شرعًا، فالمسافر -مثلاً- رخص له مجموعة الأحكام الشرعية الخاصة به حالة كونه مسافرًا سفرًا شرعيًا؛ كقصر الصلوات والجمع بينها، والمسح على الخفين والتيمم، والإفطار في نهار رمضان، فهذه التوسعة من الشارع للمسافر هي من قَبيل الرزق ذي المفهوم السلبي للمكلف، ويدخل في هذا الباب إباحةُ المحظورات في أحوال الضرورات، وكذلك سائر ما جاءت شريعتنا بتيسيره في العبادات والمعاملات بأنواعها.

وهكذا يمكننا تصور الموضوع في بقية أنواع الرزق ذي المفهوم السلبي، حيث تتجلى صور العائد لهذا المفهوم للرزق في آثاره المادية كتوفير الجهد والمال وتخفيض الإنفاق و... ، وفي آثاره المعنوية كتوفير الوقت والراحة النفسية والراحة الذهنية ... وغير ذلك من العوائد على الإنسان، فالعافية لا يعدلها شيء.

شرع الله تعالى الرُّخص بتخفيف بعض الأحكام عند حصول المشقّة، وهي من قَبيل الرزق ذي المفهوم السلبي، فيدخل فيها تيسير العبادات والمعاملات بأنواعها وإباحةُ المحظورات في أحوال الضرورات

الوقفة الرابعة: التوجيهات الشرعية في باب الرزق بمفهومه السلبي:

وردت مجموعة من النصوص في الكتاب والسنة المتضمنة لمجموعة من التوجيهات الشرعية ذات العلاقة بباب الرزق بمفهومه السلبي، والتي ينبغي للمسلم مراعاتها، وعدم تجاهلها، من تلكم التوجيهات:

١. أهمية استحضار هذه النعم، فهذا مما يعين على شكرها، وكلما زاد شكر المنعم زادت النعم، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]، فهو سبحانه المستحق للشكر لأنه المنعم والمتفضل بها، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وكذلك أخذًا بأسباب دوامها، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، وقال ﷺ: (إن الله

(١) تطلق الرخصة على الأحكام التي فيها سهولة وتيسير على المكلف في مقابل العزيمة.

ليرضَى عَنِ العبدِ أن يأكلَ الأكلَةَ فيحمَده عليها، أو يَشربَ الشَّربَةَ فيحمَدَه عليها)[١].

فإن شكر النعم يورث الحياء من الله جلّ جلاله، ويجلب محبته.

٢. الامتثال للأوامر الشرعية الحاضَّة على اغتنام موارد صور الرزق بمفهومه السلبي وعدم التفريط فيها، ومنها:

أ- اغتنام أوقات وأحوال السعة والقوة والصحة في العبادة والطاعة، يقول ﷺ: (اغتَنِم خمسًا قبلَ خمسٍ: شَبابَكَ قبلَ هِرَمِكَ، وصِحَّتَكَ قبلَ سَقَمِكَ، وغِناكَ قبلَ فَقرِكَ، وفَرَاغَكَ قبلَ شُغلِكَ، وحَياتَكَ قبلَ مَوتِكَ)[٢].

ولذلك كان ﷺ يتعوذ من فقدان هذه النعم، فيقول: (اللهم إني أَعُوذُ بكَ مِن زَوَالِ نِعمَتِكَ، وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ، وَفُجَاءَةِ نِقمَتِكَ، وَجَمِيعِ سَخَطِكَ)[٣].

يقول الشيخ الطنطاوي رحمه الله: «لماذا نطلب الذهب ونحن نملك الذهب الكثير، أليس البصر والصحة والوقت من ذهب؟!، فلماذا لا نستفيد من أوقاتنا وصحتنا؟ لماذا لا نعرف قيمة الحياة؟»[٤].

ب- الأخذ بأسباب الرزق الحلال الشرعية، كالعبادة والاستغفار والصدقات وصلة الرحم و...، والأسباب المادية كبذل الجهد والسعي في الأرض والتبكير في الطلب و.. قال ﷺ: (لو أنكُم توكلتُم على الله حَقَّ تَوكُّلِه لَرَزَقَكُم كما يَرزُقُ الطيرَ، تَغدو خِماصًا وتَرُوحُ بِطانًا)[٥]، وقال في الحديث القدسي: (يقول ربّكم تبارك وتعالى: يا ابن آدم، تفرّغ لعبادتي، أملأ قلبك غنىً، وأملأ يديك رزقًا، يا ابن آدم، لا تباعد منّي، فأملأ قلبك فقرًا، وأملأ يديك شغلاً)[٦].

يقول ابن القيم رحمه الله: «إذا أصبح العَبد وَأمسى وليس همه إلا الله وحده تحمل الله سبحانه حَوَائِجه كلهَا، وَحمل عنه كل ما أهمه، وَفرغ قلبه لمحبته وَلسانَه لذكره وجوارحه لطاعته، وإن أصبح وأمسى والدنيا همه حمَّله الله همومها وغمومها وأنكادها، ووكله إلى نفسه فشغل قلبه عن محبته بمحبة الخلق ولسانه عن ذكره بذكرهم، وجوارحه عن طاعته بخدمتهم وأشغالهم، فهو يكدح كدح الوَحش في خدمة غيره، كالكير ينفخ بَطنه ويعصر أضلاعه في نفع غيره»[٧].

ج- أن يحرص المسلم على سؤال الله تعالى العافية من الابتلاءات والمصائب والأمراض والفتن، فإن العافية هي الملك الخفي، وما من دعوةٍ يدعو بها العبدُ أفضل منها، وقد أوصانا ﷺ بذلك فقال: (اسألوا الله العفو والعافية، فإن أحدًا لم يعط بعد اليقين خيرًا من العافية)[٨].

كما أنه ﷺ كان يدعو -ويوصي عمه العباس رضي الله عنه- بذلك فيقول: (اللهم إني أسألُك العافيةَ في الدنيا والآخرةِ)[٩].

ليحرص المسلم على سؤال الله تعالى العافية من الابتلاءات والمصائب والأمراض والفتن، فإن العافية هي الملك الخفي

٣. إدراك حقيقة الحياة الدنيا، ومركزية سنة الابتلاء فيها، وأن الغاية الكلية من الابتلاء فيها هي العودة إلى الله تعالى والتوبة والتضرع إليه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢].

٤. دراسة السنن الربانية الكونية والشرعية الواردة في باب الرزق ومراعاتها، والوقوف على فقهها، وندرك من خلالها سعة رحمة الله وواسع فضله وأثر نعمه، ومن أمثلتها ما ذكره تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧]. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن

(١) أخرجه مسلم (٢٧٣٤).
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٧٨٤٦).
(٣) أخرجه مسلم (٢٧٣٩).
(٤) صور وخواطر، للطنطاوي (٢٢-٢٣).
(٥) أخرجه أحمد (٣٧٠)، والترمذي (٢٣٤٤)، وابن ماجه (٤١٦٤).
(٦) أخرجه الحاكم (٧٩٢٦).
(٧) الفوائد لابن القيم (٨٤).
(٨) أخرجه الترمذي (٣٥٥٨).
(٩) ينظر: سنن الترمذي (٣٥١٤).

صور وأمثلة لنعم نغفل عنها كثيراً

﴿تُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

قال ابن كثير رحمه الله: «أي: ولكن يرزقهم من الرزق ما يختاره مما فيه صلاحهم، وهو أعلم بذلك، فيغني من يستحق الغنى، ويفقر من يستحق الفقر»[١]؛ فيُوسع تبارك وتعالى أو يُضيّق الرزق لمن يشاء من عباده فضلاً ورحمة وحماية أو امتحانًا واختبارًا أو استدراجًا وإمهالاً أو حرمانًا وعذابًا، فلا يجوز أن يتهم الإنسانُ ربَّه في عطائه ولا في منعه جلَّ في علاه، مع تقريره أن هذه الحياة الدنيا لهوٌ ومتاع وزينة وتفاخر وأن الحياة الآخرة هي الحياة الحقيقية، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاء وَيَقْدِرُ وَفَرِحُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ﴾ [الرعد: ٢٦].

٥. الإيمان بالقضاء والقدر، والعمل على الرضا به، بل شكر الله وحمده على أقداره المؤلمة كما نشكره على أقداره المفرحة، ومفتاح ذلك أن أمر المؤمن كله خير (إن أصابته سرّاء شكر؛ فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرّاء صبر؛ فكان خيرًا له)[٢] فمهما أصاب الإنسان من أنواع الابتلاءات والمصائب فهي خير له إذا صبر واتقى، وفي تدبر قصة موسى مع الخضر عليهما السلام ما يفتح آفاقًا بعيدة في فهم الكثير من الأقدار والأحوال.

اللهم إنا نسألك رزقًا حلالاً طيبًا مباركًا فيه، ونعيمًا لا ينفد، وقرة عين لا تنقطع، والرضا بعد القضاء، ونسألك برد العيش بعد الموت، ولذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين.

الإيمان بالقضاء والقدر مما يعين المرء على إدراك النعم بالمفهوم السلبي، فيرضى المؤمن بقضاء الله ويتلمس لطف الله ورحمته فيما يصيبه من بلايا ومصائب

(١) تفسير ابن كثير (٢٠٦/٧).
(٢) أخرجه مسلم (٢٩٩٩).

المجتمعات الصغيرة وسيلة للنهوض بالأمة الإسلامية

م. جهاد بوابيجي (*)

بصيص الأمل يحفزنا للبحث عن المخرج، وإيماننا والإيمان بالسنن الإلهية يدفعنا إلى الاستمرار في العمل وبذل الجهد، ولسائل أن يسأل: من أين نبدأ؟ وإلى أين نتجه؟ ومهما تعددت الاجتهادات وتفاوتت في الإجابة عن هذه الأسئلة، إلا أنها فهي تتفق على أن البداية تكون من المستوى الفرديبناء الفردوالمحيط الفردي، وأن البناءلكن الفرد لا يقوم بدوره حق القيام إلا بجمع اللبنات بعضها لبعض ووحدات الليتكون منها بناء الصغيرة إلى بعضها حتيؤدي دوره في تشيد الصروح الشاهقة، وفي هذا المقال أفكار ملهمة في طريق النهوض

تمهيد

عندما قام البروفيسور محمد يونس بتأسيس «بنك جرامين» للفقراء، كان التحدي الأكبر أمامه هو: هل سيتمكن الفقراء من سداد القروض التي تقدم لهم؟

هذا التحدي كان حاسمًا للمشروع بأكمله ولم يكن هناك مجال للخطأ في المخاطرة في تقديم القروض من أموال المستثمرين وعدم إعادتها، لأنَّ الفقير ليس لديه ما يخسره، فهو فقير أصلاً، قد لا يهتم إلا بالحصول على القرض لشراء بعض الضروريات والتغاضي عن السداد والاستمرار في حياته.

قام أساس التعامل مع الفقراء في «بنك جرامين» على تأسيس شراكة بين مجتمعات صغيرة مكونة من خمسة أفراد إلى عشرة، ويُعطى القرض للمجتمع القادر على إدارة ذاته وتنظيم العلاقة فيما بين أفراده، ولا يسمح بإعادة الإقراض إلا للمجتمعات التي يقوم جميع أفرادها -بلا استثناء- بإعادة القرض كاملاً للبنك، وقد أدت هذه الشروط إلى العديد من الفوائد، من أهمها:

تعاون المقترضين مع بعضهم لسدِّ ثغرة تعثُّر السداد من أحدهم، وتحقيق ضغطٍ على المهمِل والمقصر في السداد، وهو ضغط يقبله الفرد ولا يمانعه لأنه يأتي من مجتمعه، كما أن هذا المجتمع ساعد الفرد في تفريغ همومه والحصول على النصح

(*) خبير إدارة تقنية معلومات، استشاري تحليل أعمال وإدارة مشاريع.

مكونات المجتمعات الصغيرة

والتوجيه والاستشارة وتبادل الخبرات، وأصبح الشركاء يحمون بعضهم البعض في السوق، وجميع ذلك ولَّد عند الفرد الإحساسَ بالثقة والأمان النفسي، ما جعله يُحسُّ بالشجاعة تجاه الدخول إلى السوق وتطوير نفسه.

هذا الأسلوب جعل من تجربة «بنك جرامين» للفقراء بنكًا ناجحًا كانت فيه نسبة السداد أكثر من ٩٨,٩٪، وهي نسبة تضاهي نسبة السداد في كبار البنوك في العالم التي تقوم بإقراض الأغنياء من الأفراد[١].

هذه التجربة الفريدة من نوعها تعطينا شاهدًا على أنَّ الاستثمار في المجتمعات وتنظيمها وضبطها لا يقلُّ أهميةً عن بناء الأفراد، ويساعد كثيرًا في ازدهار المجتمع.

وهنا ترد مجموعة من الأسئلة المهمّة: ممّ يتكوّن المجتمع؟ ولم تحرص المجتمعات المتقدّمة على إنشاء النقابات ومنظّمات المجتمع المدني وغيرها؟ وما علاقة نهضة المجتمع بواقع الأمّة ونهضتها؟

مم يتكون المجتمع؟

يتكون المجتمع الصغير والمتوسط من جوهر، وثلاثة مكونات أساسية، تحيط بها.

» **فجوهر المجتمع هو المرجعية والرافعة:** التي لا يمكن لفرد تجاوزها، والجميع يعلم أنه سيتعرض للمساءلة أو العقاب في حال خرقها أو تجاوزها، كالمرجعية الدينية، والعائلية، والقبلية، والسياسية، ونحو ذلك. هذه المرجعية هي مصدر القوانين والأنظمة التي ترتب حياة الأفراد وهي الأساس الذي يضمن استمرار واستقرار المجتمع. جوهر المجتمع هو الذي يربط جميع مكوناته وقد يكون ظاهرًا جليًا أو مخفيًا.

» **المصالح:** فالمصالح المشتركة بين الأفراد توجد ترابطًا في المجتمع يتبادل أفراده المصالح فيما بينهم والتي قد تكون مصالح مالية أو سياسية أو مناصب أو إفادة على المدى الطويل.

» **التواصل:** فلا وجود للمجتمع من دون تواصل فعال بين أفراده، سواء من خلال التقارب الجغرافي أو التواصل الإلكتروني أو وجود مكان يجمع الأفراد.

» **الثقافة:** وهي ما يجمع عقول الناس من غير مصالحهم كاللغة أو الدين أو مكان المعيشة أو التخصص العلمي، وهذه الثقافة هي ما يجعل الأفكار تتكامل بين الأفراد وهي أساس إبداع الأفراد وتمكنهم من حل مشاكلهم ومشاكل غيرهم أيضًا.

تلك المكونات قد يكون أحدها أضعف من الآخر، ولهذا فالمجتمعات التي تكون مكوناتها قوية

(١) من كتاب: Banker to the Poor: Micro-Lending and the Battle Against World Poverty, by Muhammad Yunus

تستمر ويصعب على الفرد الخروج منها والعكس صحيح. ثم يحيط بذلك كله عنصران:

١. شبكة من العلاقات ما بين الأفراد في مختلف المجتمعات وتتضح هذه الشبكة عندما تتغير العناصر الثلاث أعلاه وتعمل كرابط بين مجتمعات مختلفة ربط بينها بعض أفرادها.

٢. كما تحيط البيئة الحاضنة كل المجتمعات الصغيرة والمتوسطة وهي البيئة الحاضنة التي يمكن أن تكون دولةً ما أو نطاقًا جغرافيًا واضح المعالم والثقافة.

كلما كان التواصل بين أفراد مجتمع ما أفضل وأكثر نضجًا وأكثر اعتمادًا على مرجعيات واضحة كان هناك تقارب أكثر وانسجام أعمق بين أعضائه، وكلما ازداد تنوع الثقافات بين أفراد المجتمع الواحد كانت الحاجة أكبر لمرجعية تضبط العلاقة وتنظمها

مثال ذلك:

السكن في حيٍّ أو منطقة أو مجمّع سكني له حدود واضحة (البيئة الحاضنة)، بمجرّد أن تقيم ضمن تلك الحدود فقد قبلتَ الخضوع للقوانين والأنظمة التي تحكمه واحترامها والالتزام بها بما يحقق المصالح المشتركة بين الساكنين، وكلما كان التواصل بين أفراد ذلك المجتمع أفضل وأكثر نضجًا وأكثر اعتمادًا على مرجعيات واضحة كان هناك تقارب أكثر ومزيد من الانسجام والطمأنينة بين السكان. وكلما ازداد تنوع الثقافة بين أفراد المجتمع كانت الحاجة أكبر لمرجعية تضبط العلاقة وتنظمها، كـ (وثيقة المدينة) بين الأوس والخزرج (ذوي التاريخ الدموي فيما بينهم) واليهود والمهاجرين أيضًا، وكل منهم له ثقافة مختلفة عن الآخر ولكن رسولنا أسس المرجعية المكتوبة فكانت عمود مجتمع إسلامي استمر إلى يومنا هذا.

وقد تميزت بلاد الشام بوجود الكثير من المجتمعات الصغيرة التي كانت كعوائل كبيرة تقدم للبلاد الاستقرار والقوة وتوحيد الرؤية، حيث إنها كانت تتشارك جميعها في حب بلادها والدفاع عنها واستقلالها، فقد كان مجتمع (الحارة) له تنظيمه الذي استمر لقرون خلال فترة حكم الدولة العثمانية وكان هناك زعامات لحارات المدن ومختار يعمل على تلبية احتياجات أهل الحارة والحرص على تحقيق الاستقرار الداخلي فيها، حتى إن تسليم الأمانات وحل الخلافات والذهاب إلى الخطبة والنكاح كانت من أولويات المختار أو العمدة، فتحقق استقرار مجتمعي كان أساسًا في طرد المحتل الفرنسي من بلاد الشام. لهذا عندما أتى نظام حافظ الأسد إلى السلطة، كان تفكيك هذا المجتمع أحد أهم أولوياته، فقام بإلغاء هذه المجتمعات من خلال إهانة رؤوسها وإزالة الهيبة التي كانوا يتمتعون بها، وحول سلطتهم في الحارة لشاب أرعن ينتسب إلى فرع مخابرات! فانفرط عقد المرجعية وانهار المجتمع خلال سنوات معدودة.

عملت بعض الحكومات المعاصرة على تفكيك بنية المجتمعات من خلال إهانة رؤوسها وإزالة الهيبة التي كانوا يتمتعون بها، ودفع السلطات التي كان يتمتع بها عمدة الحي إلى أفراد سفهاء ينتسبون لفروع المخابرات، فانفرط عقد المرجعية في سنوات معدودة

الاحتياج الذي يتعطش إليه الفرد تجاه المجتمع

يحتاج الفرد في مجتمعه إلى الإحساس بمجموعة من القيم المهمّة[1]:

أ. قيم بناء:

١. صدق الانتماء: الذي يمنع الفرد من اتخاذ خيار ترك مجتمعه أو خيانته أو إيذائه لمصلحته الشخصية.

٢. ثقافة العمل المشترك: والتي تتضمن محبة العمل وإتقانه والإبداع وإيجاد مشاكل المجتمع لحلها والاستثمار في العنصر البشري .

٣. التلاحم المجتمعي وتعميق الوحدة: حيث يكون في المجتمع الحد الأدنى من النزاعات والخصومات.

٤. تحقيق التكافل الأخوي: حيث يدعم المجتمع (كله) الأفراد المتضررين بالأعمال الخيرية والوقفية.

(١) اقتبستها بتصرف من مقال: «المجتمع المدني والقيم الوطنية» للدكتور حمزة الفتحي في موقع صيد الفوائد.

٥. تحقيق الالتزام والإيجابية الفردية: احترام الأنظمة واللوائح والتفاعل مع قضايا المجتمع وانتشار العمل التطوعي وإنعاش الحياة في البيئة المحيطة.

ب. قيم وقائية:

١. نبذ الأفكار الدخيلة: المناعة المنيعة تجاه الهجمات الثقافية والأخلاقية والدينية الدخيلة ونبذ الأفراد الذين يشذون عن ثوابت المجتمع ومرجعياته.

٢. تقويم الأخطاء الفردية: التعامل معها بحكمة من قبل المجتمع الحاضن هو مربط الفرس، والمجتمع الراسخ القوي يأخذ على يد المخطئ ويوجهه ويقومه، وإن احتاج الأمر: يعاقبه، وحديث السفينة يوضح هذه النقطة.

٣. حماية الإنجازات والمكتسبات المجتمعية: لأنها ملك للجميع، فتجد أن قاعة الاجتماعات الرئيسية تحتوي على الكؤوس والمكافآت التي تخلد ذكر إنجازات أفراد هم جزء من المجتمع.

٤. تحمل المسؤولية: تجاه المهنة والتكاليف الشرعية والقانونية والتربوية وحتى العائلية.

ج. قيم تطويرية:

١. الارتقاء بالعمل المهني والحرفي والتخصصي: تنظيمات مجتمعية تراقب وتنقد وتشير إلى المسيء إن أساء وتكافئ المحسن إن أحسن.

٢. الابتكار: بيئة المجتمعات المستقرة تشجع الفرد على الابتكار والإبداع وإيجاد الحلول، لإحساسه بالأمان من المجتمع المحيط، فتتفجر الطاقات ولا يبقى من عائق تجاه إطلاق طاقة الفرد سوى كسله.

٣. ارتفاع مستوى الانتاج المحلي: من الناحية المالية (نتائج المبيعات) ومن ناحية الإتقان (جودة العمل).

مثال: صديق لي مغترب من جنسية أفريقية، كان جزء من مجتمع أصدقائه من نفس البلاد وكان من المقتدرين ماليًا. وحدث أن وقع حادث سير لابنه ونقل للمستشفى، وعند وصول الخبر إلى «مجتمعه» وجد في المستشفى أكثر من ٤٠ منهم قدموا له مساعدة مالية، فأخبرهم أن لا حاجة له به، فأجابوه: بل تأخذها كي تعطي عندما يحتاجك مجتمعك.

الاقتصار في الإصلاح على الفرد لا يكفي لتحقيق القيم المجتمعية من نزع حظوظ النفس والفردية التي تقتل الولاء والبراء وتحول دون استيعاب الأفراد لكون المجتمع يحقق مصالح الفرد ولكن الفرد لا يحقق مصالح المجتمع بالضرورة

ما أساس بناء المجمعات القوية؟

إنَّ تركيز المصلحين على إصلاح يستهدف الفرد فقط لا يساعد على بناء المجتمع المتماسك المتكاتف الذي يحتوي أفرادًا يستوعبون قيمة مجتمعهم ويفهمون تركيبته ويسعون لحمايته بأرواحهم (ولاء للمجتمع). فالاقتصار على الأفراد هو استنزاف للوقت والجهد، ولا يؤدي للنتائج المرجوة منه، ولا يؤدي إلى حمايته من العداء الخارجي (البراء من العدو)؛ هذان المبدآن (الولاء والبراء) أساس أي مجتمع. فلا وجود لمجتمع أفراده لا ولاء لهم، ولا بقاء لمجتمع أفراده لا يدافعون عنه. والعمل على إصلاح الفرد فقط يفتقد إلى نزع حظوظ النفس والفردية التي تقتل الولاء والبراء في النفس وتمنع الفرد من استيعاب أن (المجتمع يحقق مصالح الفرد ولكن الفرد لا يحقق مصالح المجتمع) فتُفاجأ أن هناك من يرفض المشاركة في اعتصام أو التوقيع على اعتراض لأنه (لن يستفيد) مباشرة من ذلك النشاط، وفي العصر الحالي انتشرت النزعة الفردية الهادمة التي تسلخ الفرد عن مجتمعه لمصلحة فردية عاجلة صغيرة، مضحية بالمصلحة الدائمة الراسخة.

ولهذا فإن عقيدة الولاء والبراء في الإسلام هي أحد أهم الأسس التي يقوم عليها المجتمع المسلم، فمظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين تنقض الإسلام من أساسه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١] والآية الأخرى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣]، وتعني: (فالذين كفروا بالله يجمعهم الكفر فيناصر بعضهم بعضًا، فإن لم توالوا المؤمنين وتعادوا الكافرين -كما يعادونكم- تكن فتنة للمؤمنين وفساد في الأرض عظيم بالصد عن سبيل الله)[١].

(١) المختصر في تفسير القرآن الكريم ص (١٨٦).

وتعدُّ العقيدة الدينية إحدى أقوى الروابط التي تصنع المجتمعات القوية، فموالاة الناس لأقرانهم في العقيدة هي الركيزة الأساسية لقوته ومنعته، ويتقبل الأفراد في المجتمع فردًا جديدًا بسهولة إن كان ذا عقيدة مماثلة للمجتمع الذي يريد الانضمام له. لأجل ذلك، إن نزعت عقيدة الولاء والبراء في الإسلام من صدور الأفراد فسيصبح الإسلام عبارة عن أفراد متفرقين دون مجتمعات يتفاعل بعضها مع بعض، وهذا أحد أسباب عدم جواز البقاء في ديار الكفر من دون حاجة معتبرة مبررة.

لقد أصبحت الدولة الإسلامية دولة عظمى مهابة عندما ترسخت بها عقيدة الولاء والبراء وأصبحت أمرًا بديهيًا كالهواء الذي يتنفسه الإنسان ويصبح منبوذًا مرتدًا من يخرق هذا الأساس المتين من المجتمع كله، فتكاد لا تجد من يخون الأمة من أهلها المؤمنين حق الإيمان عبر التاريخ الإسلامي (إلا منافق معلوم النفاق)، ولهذا السبب أيضًا كانت عملية المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار هي أول خطوة قام بها الرسول صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة لوضع أساس قوي لمجتمعات صغيرة أساسها شخصان اثنان متآخيان في الله بمرجعية راقية محترمة، وبمجموعها تكوّن المجتمع المسلم الكبير في المدينة المنورة. وبذلك، لا يمكن بناء حضارة أو أمة أو دولة قوية على الصعيد الاستراتيجي المستدام دون مجتمع مؤسس وراسخ، له مرجعيته الواضحة وهيكليته المفهومة، ويتسم بالترابط الفعال وتبادل المصالح المشتركة.

وهذا أيضًا أحد أهم أسباب الضخ الإعلامي الهائل وغير المسبوق لانتزاع وسلخ هذه العقيدة من قلوب المسلمين، فالخطر الحقيقي الذي يهدد كل كيان معاد للإسلام هو ولاء المسلمين ومساندتهم ودعمهم لبعضهم البعض ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١].

> **مما تعانيه مجتمعاتنا: أنه لم يعد لها تأثير أو ضغط حقيقي على القرار السياسي لأنها مفكَّكة لا هيبة لها، وغالب المصلحين فيها هم أفراد مشتتون تأثيرهم لا يتعدى مسافة ما يصله صوت أحدهم مهما صرخ ونادى**

المشاكل التي تعاني منها مجتمعاتنا:

إن اكتشاف المشكلة هو الخطوة الأولى لحلها، وفي هذا السياق فإن الأمة الإسلامية تعيش في مأساة اجتماعية واضحة الدلائل والظواهر، وإليكم بعض مؤشراتها:

- انتشار الدكتاتوريات وأنظمة الحكم الاستبدادية والتي لا تأبه لمجتمع ولا لفرد ولا لمبدأ، جل ما يريدون هو تعزيز سلطتهم وتحكمهم بما لديهم من موارد ومقدرات بشرية ومالية تحقيقًا لمصلحتهم الفردية حصرًا، وتأثر العديد من المنظمات والمؤسسات بذلك، لقد كانت المجتمعات هي الأساس الذي يمنع الطغيان ولأن الطغاة يعلمون تأثير التنظيمات المجتمعية عليهم عملوا على تفتيتها ومنع استقلالها التعليمي والشرعي والمادي، مما أدى لانهيارها وبالتالي اشتداد قبضة المستبدين على أفرادها.
- نتيجة للنقطة السابقة، لم يعد للمجتمعات المسلمة تأثير أو ضغط حقيقي على القرار السياسي لأنه مجتمع متفكك لا هيبة له، وغالب المصلحين فيه هم أفراد مشتتون تأثيرهم لا يتعدى مسافة ما يصله صوت أحدهم إن صرخ؛ فانحسر كثيرًا تأثير ما تقوم به بعض المجتمعات المسلمة من استنساخ للتجارب الغربية التي تسمى (منظمات المجتمع المدني) في محاولة لاستعادة حقوق المجتمع لكنها لم تستطع تقديم تأثير حقيقي في السياسة والمال والمجتمع.
- تغييب المساجد عن دورها الحقيقي الذي لا يقتصر على إقامة الصلوات فحسب، بل هو مؤسسة اجتماعية ثقافية تعتبر ملاذًا لكل حائر يبحث عن إجابات لتساؤلاته، ومكانًا للعلم وتبادل الخبرات والمعارف والدعوة والكتابة والإنتاج العلمي، ومركزًا للإمام الذي يعتبر الناصح الأمين للمجتمع المحيط بالمسجد. فانحسار دور المساجد ليس سوى علامة أليمة أخرى على انهيار المجتمع المسلم الذي فقد المرجعية الصحيحة، فضاع الكثير من أفراده في ثنايا البحث عن مرجعية موثوقة لهم.
- ضعف الأوقاف وانحسار دورها في المجتمع، نتيجة مصادرة الحكومات لها ورقابتهم عليها

أهم المشكلات التي تعاني منها مجتمعاتنا

ومصادرتهم لقرارها، ومن ثم عزوف أصحاب الثروات عنها، وهو دليل مؤكد على ضعف التحرك المجتمعي في الأمة الإسلامية. والحديث هنا عن المشاريع الوقفية المؤثرة، كالمستشفيات والجامعات والمدارس ومراكز الأبحاث الوقفية وأمثالها.

* انتشار الفقر واشتداده نتيجة الإفقار المتعمَّد من الأنظمة الحاكمة ووصوله إلى مستوى من القهر قد يضطر صاحبه للتخلي عن دينه أو ارتكاب الجرائم، هذا الفقر أحد مظاهر انهيار المجتمع، فالفقير الذي لم يعد يجد ملجأ أو سندًا له في مصيبته التي ابتلي بها ولا يكاد يجد من يقدِّم له حتى نصيحة أو توجيهًا تجعله يقف حائرًا أمام الجوع الذي يتزامن مع عفّة في النفس والجهل فيكون لذلك آثار مؤلمة.

* غياب القدوات والرموز المؤثرة أو نقصها الحاد، فهذه القدوات لا تظهر وحدها، بل هي نتاج احترام المجتمعات لها وقبولهم واحتضانهم ومعرفة فضلهم ومكانتهم، فلما لم تعد المجتمعات المريضة مهتمة بهم لم يعد لهم تأثير واضح، بل أصبح أثرهم ضائعًا في محيط أفراد غير منظمين.

* عدم ملاحظة الفرد لرأي المجتمع في تصرفاته وسلوكه، أو استيعاب شؤم معاصيه على المجتمع، فزاد الركض الحثيث وراء المتع والشهوات والنزوات دون رادع من خوف أو حرج أو خجل بما لم يكن في أقرانه من الأجيال السابقة.

* انحسار المجتمعات المتخصصة التي تقوم على أسس علمية أو فكرية أو قضايا اجتماعية وحضارية ما (كجمعيات حقوق الإنسان، منظمات حماية البيئة، جمعيات البحث العلمي، حركات مناهضة ظاهرة ما في المجتمع وغيرها الكثير)، ويكاد الدعم المقدم لها من الدول ورجال الأعمال يكون معدومًا، هذه المجتمعات في البلاد الغربية تعتبر أحد أسس صناعة القرارات السياسية والتنموية، وأفرادها -وقادتها بالأخص- يتمتعون بنفوذ قوي في

الدولة والإعلام ولهم كلمتهم المسموعة من عموم الناس وهذا بعض ما نفتقده بشكل حرج.

* ظاهرة المجتمعات الافتراضية التي لجأ إليها الكثير من المراهقين والشباب والتي لا تقدم للفرد رعايةً ولا دعمًا ولا توجيهًا ولا مرجعيةً ولا رسالةً ولا قيمة نافعة، فأصبحت مكانًا لتبادل التفاهات، وتحولت إلى إحدى وسائل الدمار الاجتماعي التي لا تحقق انتماءً حقيقيًا ولا مرجعية محترمة ولا مبدأ يفتخر به. بل حتى المجتمعات الافتراضية المفيدة (العلمية والبحثية) لا تقدم القيمة الحقيقية التي يقدمها المجتمع المنظم بالشكل التام الذي يجب أن يكون من دعم ومساندة واستشارة (على المستوى العميق) وتحصين وتربية وخبرة في التواصل والتعامل البشري.

* بحث الأفراد عن أي إنجاز يفتخر به مهما كان تافهًا، والمصيبة هي في وجود الكثير من التافهين أمثاله الذين يعبرون له عن إعجابهم بـ«إنجازه» ويطالبونه بالمزيد.

لقد أصبح من الضروري بمكان (بعد الاطلاع على الظواهر السابقة) العمل على دعم المجتمعات التي تقدم لأفرادها الأمن والحماية والدعم والمساندة وتجعل الفرد المنتمي إلى أحدها فخورًا بالانتماء إليه ويضحي من أجله ويقدم الغالي والنفيس لأجله، يحرص على أن يكون فاعلاً في هذا المجتمع، ويحرص على أن يقدم لأفراده ما لديه من معلومات وخبرات ومعرفة في سبيل خدمة الغاية العليا والرسالة السامية والأهداف الراقية التي يتبناها المجتمع.

والعمل على تأسيس مجتمعات تقوم بهذه الأدوار في حال غيابها لسبب أو لآخر، كحال المغتربين في بلاد المهجر!

كانت المجتمعات هي الأساس الذي يمنع الطغيان ولعلم الطغاة بتأثير التنظيمات المجتمعية عليهم عملوا على تفتيتها ومنع استقلالها التعليمي والشرعي والمادي، مما أدى لانهيارها وبالتالي اشتداد قبضة المستبدين على أفرادها

تضمن لنا منظومة العمل في الإسلام أن تكون المجتمعات مترابطة بروابط الأخوة كي يتكون منها المجتمع المسلم الكبير الذي يحقق عمارة الأرض وإرساء دين الله بها وتحقيق العبودية الحقيقية لله فيها

وصايا نأمل أن ترى النور...

تضمن لنا منظومة العمل في الإسلام أن تكون المجتمعات مترابطة بروابط الأخوة كي يتكون منها المجتمع المسلم الكبير الذي يحقق عمارة الأرض وإرساء دين الله بها وتحقيق العبودية الحقيقية لله فيها. ولكن... أين هي تلك المجتمعات الصغيرة؟

إن تكوين المجتمعات الصغيرة التي تقوم بهذه الأعمال الهامة لم يعد أمرًا صعبًا، فمجموعة على واتساب قد كونت مجتمعًا، شباب جلسوا في سيارة أصبحوا مجتمعًا، شركة تم توظيف كوادر بها أصبحت مجتمعًا، وهناك مجتمعات أخرى أكبر وأعقد وأصعب تكوينًا، ولكن تحقيق الانتماء الحقيقي لذلك المجتمع وحمايته وتفعيله من خلال تقديم الخدمات والرعاية والاستمرار في ذلك على المدى الطويل هو غاية في الصعوبة. وتمتد تلك الصعوبة إلى إدارة المجتمع واستمراريته لأجيال، وإن توفرت الإرادة لدى رؤوس المجتمع والأفراد على حد سواء على السعي لتحقيق غايات سامية، قد نرى من نتائجها وثائق سفر محترمة لدى المجتمعات المسلمة حول العالم.

إننا بحاجة إلى إعادة تفعيل الطبيعة البشرية مرة أخرى، الطبيعة البشرية التي تعتمد على التواصل وتبادل الخبرات والمعارف والبدء بإنشاء مجتمعات ناضجة يكون فيها التواصل المباشر بين أفرادها (وليس إلكترونيًا) بالتزامن مع تفعيل العمل الإلكتروني للدعم والمساندة، فيما يلي بعض الأفكار التي يسهل تنفيذها:

١. إعادة تفعيل دور المسجد وإكثار اللقاءات المباشرة فيه.

٢. تكوين مجتمعات منظمة يكون أساسها الأخوة في الله، وهو المبدأ الذي يجب إعادة تنشيطه في هذا الزمن واستيعاب واجباته وحقوقه وتنظيم لقاءات مباشرة بين الأفراد بشكل مقنن.

٣. الإكثار من التوعية الاجتماعية في الأسرة والمجتمعات المحيطة.

٤. إنشاء مجتمعات تخصصية صغيرة (من ٥ إلى ١٥ شخصًا فقط)، يكون البحث والابتكار والإنتاج العلمي أساس قيامها، وتفادي الحاجة إلى الكثير من الدعم المالي في البداية.

٥. التأكد من التكامل مع قوانين الدولة الحاضنة للمجتمع الجديد.

٦. الحرص على إظهار الإنجازات في الإعلام البديل مهما كان الإنجاز صغيرًا، فكل صغير يكبر إن شاء الله.

٧. تفعيل العمل التقني في تمكين تحقيق جميع النقاط السابق ذكرها بشكل فعال.

نحتاج إلى بحث مطول ومخصص لبناء استراتيجية واضحة لتفعيل المجتمع المسلم الصغير والمتوسط بشكل يساعد على نهضة الأمة من جديد وفي ذلك العديد من المراجع التي يجب الرجوع إليها في هذا الصدد. ولكن هناك محاور أساسية على الفاعلين في المجتمع المسلم والعلماء والسياسيين والحكماء وأصحاب المناصب ورجال الأعمال وأصحاب المؤسسات والشركات لفت نظرهم إليها في الفترة القادمة التي لم يمر على تاريخ الأمة الإسلامية زمن أسوأ منه، نحن بحاجة إلى مبادرات هؤلاء الرموز كي يساعدوا في تنظيمنا فإن لم ننظم أنفسنا كأفراد في مجتمعات فلن نتمكن من تحقيق أي إنجاز على أرض الواقع إن كان كل فرد ينفخ في نار مختلفة عن نار أخيه.

دروس تربوية من آيات آل عمران في غزوة أحد

م.حسام سعيّد (*)

السيرة النبوية كلها دروس، والقرآن الكريم كله حكم، فكيف إذا استفاض القرآن الكريم في تناول محطة بالغة الأهمية من السيرة النبوية؟ لا شك أنَّ هذه الآيات ستكون واحة تربوية وارفة، يستظلُّ بها المسلم عندما تحيط به مصاعب الابتلاءات وآلام المسير، فيجد فيها ما يضمِّد جراحاته، ويواسي أحزانه، وينبِّهه على ما أوصله إلى حاله، ويُهديه من العبر والدروس ما يضيء له طريقه ومستقبله.

غزوة أحد غزوة فريدةٌ في السيرة النبوية بل وفي التاريخ الإسلامي كله، وليست كباقي الغزوات؛ انكسر فيها خير جيل، وقُتل منهم ما لم يقتل في أيِّ معركةٍ أخرى، وأُصيب رسول الله ﷺ ولم يصب في معركة غيرها، فكانت بحق «مصيبةً» على الصحابة، هزَّتهم من أعماقهم، وصدمتهم في بداية زمن الصعود والتمكين، وقد استفاض القرآن في الحديث عن غزوة أحد استفاضة كبيرة.

لقد كان في أحد دروس عظيمة، للصحابة ابتداء، وللأمة من بعدهم إلى يوم الدين، وقد اعتنت مؤلفات ومقالات كثيرة بإبراز هذه الدروس استقاء من القرآن وأحداث السيرة، أشارت إلى شؤم المعصية، وسنن الله في النصر والتمكين، وحكمة الله في البلاء والتمحيص، وغيرها من الدروس الكبار، ما يغني عن كتابة مقال جديد فيه. إلا أن في الآيات التي نزلت في أحد لفتات منهجية، ولطائف تربوية قد لا تكون بشهرة تلك الدروس التي تبدو للعيان، وهي مادة هذا المقال.

الدرس الأول: تنويع الخطاب التربوي عقب المصائب والابتلاءات:

ينصرف جلُّ كلام الدعاة والمربين عقب المصائب والابتلاءات إلى أخذ الدرس والعبرة، والتذكير بسنن الله وقوانينه، ولا شك أن هذا مطلب عظيم، وكذلك كان الخطاب القرآني عقب غزوة أحد، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧]، فهل كان الأمر بالسير والنظر إلا لأخذ العبرة ومعرفة العاقبة؟

(*) بكالوريوس هندسة كهربائية، مهتم بالتربية والتطوير المؤسسي.

ثم أكَّد جل جلاله بأوصافٍ عدّة على هذه الغاية فقال: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨]، وأعاد ربُّنا تعالى التذكير بهذا المطلب العظيم في خضمِّ الآيات مراتٍ عدّة ليُبقي البوصلة ثابتة ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ [آل عمران: ١٥٥].. إلى غير ذلك من المواضع.

> **المصائب الشديدة المزلزلة قد تهزُّ قناعات المرء، وقد تُدخل عليه الشُّبَه، فيحتاج إلى ترسيخ القناعات ولو بدت بدهية مسلّمة في حال الرخاء والسعة**

لكن الإنسان الخارج من المصيبة بحاجة إلى أمرين آخرين:

١. **المواساة وتخفيف الآلام والجراح:** -ولو كان هو من جنى على نفسه- فإنّه يكون كسيرًا حزينًا. ومما ورد من الشواهد على ذلك في سورة آل عمران قوله تعالى:

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ [١٣٩].

﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [١٤٠].

﴿فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ [١٥٣].

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ﴾ [١٥٤].

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [١٥٥].

وقد اهتمَّ القرآن بتفاصيل ما حدث والتعليق عليه، فشمل ذلك ما كان من كلامهم وما اقترفت جوارحهم وما دار في نفوسهم وخواطرهم، كي تُستخلص كامل العبر.

٢. **التثبيت:** فالمصائب الشديدة المزلزلة، قد تهزُّ قناعات المرء، أو يُخشى عليه من ذلك، وأن تدخل عليه الشُّبَه، فيحتاج إلى ترسيخ القناعات ولو بدت بدهية مسلّمة في حال الرخاء والسعة، ومن ذلك:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [١٤٤].

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [١٤٥].

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [١٥٢].

﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [١٥٤].

﴿وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ [١٥٨].

﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [١٦٠].

﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ﴾ [١٦٢].

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [١٦٦].

الدرس الثاني: إعطاء المتربي ما يحتاج إليه لا ما يطلبه فحسب:

يشير قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ [١٤٤] إلى ما حدث في أرض المعركة من انتشار الشائعة أنَّ رسول الله ﷺ قد قتل، ورغم أن هذه الحادثة من آخر أحداث الغزوة إلا أن الآيات اعتنت بتقديمها في الذكر، وذلك لأهميتها وعظم التبعات المترتبة عليها، فمن الصحابة من ألقى سلاحه وخارت عزيمته، ومنهم من ترك أرض المعركة، حتى عمت الفوضى والاضطراب في صفوف المسلمين. فجاءت الآية لتذكر أن محمدًا رسول كغيره من الرسل يجري عليه الموت والقتل، فلا ينبغي أن يكون قتله سببًا للتولي.

وقد تكررت الإشارة إلى مثل هذا المعنى في وقت مبكر من الدعوة، وذلك في قوله تعالى في سورة الزمر المكية ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، وفي الآية لفتة جديرة بالتأمل، ذلك أنها لم تقتصر على ذكر «القتل» وإنما ذكرت معه -بل وقبله- الموت، مع أنه لا مناسبة له وفق أحداث المعركة، وقد كان لذكر الموت شأن لاحقًا.

فإنه لما مات النبي ﷺ حقًا، كان وقعه على الصحابة شديدًا، حتى إن عمر ﷺ قال يومها -فيما ترويه عائشة عنه-: «واللَّهِ ما مَاتَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ»، قَالَتْ: وقَالَ عُمَرُ: «واللَّهِ ما كانَ يَقَعُ في نَفْسِي إلَّا ذَاكَ، ولَيَبْعَثَنَّهُ اللَّهُ، فَلَيَقْطَعَنَّ أيْدِيَ رِجَالٍ وأَرْجُلَهُمْ»[1]، فكانت هذه الآية -بذكر الموت- سببًا لتثبيت الصحابة رضوان الله عليهم، يقول ابن عباس: «والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية، حتى تلاها أبو بكر فتلقاها منه الناس كلهم، فما أسمع بشرًا من الناس إلا يتلوها»[2]. وبهذا تظهر الحكمة البالغة في إدراج لفظ الموت مع القتل في الآية.

يحسن بالدعاة والمربِّين ألا يكون تعليقهم على الحدث أو الخطأ مقتصرًا عليه، وإنما يتَّسع بقدر ما يقدّر حاجة المتربي أو المدعو حالاً أو آجلاً

ويمكن أن يأخذ الدعاة والمربون من هذا درسًا عظيمًا: ألا يكون تعليقهم على الحدث أو الخطأ مقتصرًا عليه، وإنما يتسع بقدر ما يقدّر حاجة المتربي أو المدعو حالاً أو آجلاً. ونجد شواهد لذلك من سيرة الرسول ﷺ، ففي حديث عمر بن أبي سلمة ﷺ قال: «كُنْتُ غُلَامًا في حَجْرِ رَسولِ اللَّهِ ﷺ، وكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ في الصَّحْفَةِ، فَقَالَ لِي رَسولُ اللَّهِ ﷺ: (يا غُلَامُ، سَمِّ اللَّهَ، وكُلْ بيَمِينِكَ، وكُلْ ممَّا يَلِيكَ)، فَما زَالَتْ تِلكَ طِعْمَتي بَعْدُ»[3]. إنما كان سبب التوجيه أن يده كانت تطيش في الصحفة، فنبهه النبي وعلمه الأدب في ذلك وأضاف إليه -بل وقبله- آدابًا أخرى لم يأت في الحديث أن الغلام خالف فيها، لكن ما حدث منه كان مناسبة حسنة لتنبيهه على غيره من الآداب مما يحتاج إليه.

ونجد هذا أيضًا عندما سألَ رجلٌ رسولَ اللهِ ﷺ فقال: يا رسولَ اللهِ إنَّا نركَبُ البحرَ ونحملُ معنا القليلَ من الماءِ فإن تَوضَّأنا به عَطِشْنا، أفنتوضَّأُ من ماءِ البحرِ؟ فقال رسولُ اللهِ ﷺ: (هو الطَّهورُ ماؤُهُ، الحلُّ مَيتتُه)[4].

فالرجل إنما سأل عن الماء، لكن لما رأى النبي ﷺ أنه ممن يتكرَّر منه ركوب البحر علَّمه أمرًا آخر قد يحتاج إليه وإن لم يسأل عنه.

على الدعاة والمربين ألا يحقّروا من أثر الإرجاف والشبهات على المؤمنين، بل على الدعاة والمربين أنفسهم، وأنهم عرضة لأن يتأثروا بها، مما يوجب الرعاية بالتعليم والمتابعة والعلاج، وعدم المسارعة إلى اتهام كل متردد أو متراجع

الدرس الثالث: خطورة الإرجاف على تماسك المجتمع:

قال تعالى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ [آل عمران: ١٢٢]، وهاتان الطائفتان من المؤمنين لا المنافقين، إحداهما من الخزرج من بني سلمة وأخرى من الأوس من بني حارثة، وكانتا جناحا العسكر، ومع ذلك فقد همُّوا بما فعله المنافقون من الفشل والانسحاب لولا أن ثبتهم الله، وما كان هذا إلا تأثرًا بإرجاف المنافقين وشبهاتهم ومواقفهم. وهذا درس للدعاة والمربين ألا يحقّروا من أثر الإرجاف والشبهات على المؤمنين، بل على الدعاة والمربين أنفسهم، وأنهم عرضة لأن يتأثروا بها، فيجب أن يحوطوهم بالتعليم والرعاية والمتابعة، وإذا ظهر منهم علامات التأثر أن يبادروا إلى اجتثاثها برحمة وحزم. وفي الوقت نفسه يجب أن يقدروا أن مثل هذا الأمر وارد مع الإيمان، فلا يتهمون كل متردد أو متراجع في دينه أو يبالغوا في تخوينه فيزيدونه بعدًا ونفورًا.

الدرس الرابع: من شؤم المعصية:

من أظهر دروس الغزوة شؤم المعصية، وأن ما أصاب الصحابة في أحد هو من عند أنفسهم، وبما كسبت أيديهم، جزاء فشل طائفة منهم وتنازعهم في الأمر ومعصيتهم، وأن لمعاصي العباد أثرًا في تسليط عدوهم عليهم، ونيلهم منهم. إلا أن البعض يذهب لأبعد من ذلك ليقرر أن المؤمنين إذا عصوا الله صاروا هم وأعداءهم الكفار سواء. وأصبحت معركتهم صراع بشر لبشر، وربما استدلوا لذلك

(١) أخرجه البخاري (٣٦٦٧).
(٢) أخرجه البخاري (٤٤٥٤).
(٣) أخرجه البخاري (٥٣٧٦).
(٤) أخرجه أبو داود (٨٣) والترمذي (٦٩) والنسائي (٥٩) وابن ماجه (٣٨٨)..

بالأثر المروي عن عمر: «وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوّهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة؛ لأنَّ عددنا ليس كعددهم، ولا عدّتنا كعدّتهم، فإذا استوينا في المعصية، كان لهم الفضل علينا في القوة» وهذا أثر ضعيف عن عمر[1]، ثم حاشا لله أن يساوى المسلم لمعصيته بالكافر، بل بينهما من التفاوت ما ذكره الله في كتابه، وإن عصى المؤمن ربه ما عصى. وليس المقصود من هذا التوضيح الاستهانة بالمعصية وآثارها، فشؤم المعصية أمر معلوم في ديننا، لكن ما يصيب المسلمين بسبب ذنوبهم هو سنة من سنن الله، وليس تخليًا من الله عن المؤمنين وتسوية لهم بالكافرين. بل إن هذا التصور لا يستقيم مع عدل الله سبحانه وتعالى. وقد أثبت سبحانه لهذه الطائفة ولايته لها ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ [١٢٢] وإيمانها ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ﴾ [١٥٥] ثم عفوه عنها ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [١٥٥].

الدرس الخامس: التأني في إطلاق الوعود والتعهدات:

عاتب الله الصحابة على عدم صبرهم على أمر كانوا يتمنونه ويودون حصوله بقوله: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [١٤٣].

وذلك أنَّ عددًا ممن فاتتهم غزوة بدر تمنوا أن يحضروا مشهدًا يظهرون فيه جهادهم، ويقولون: لو حضرنا لنفعلنَّ ولنفعلنَّ، فلما حصل لهم ذلك في غزوة أحد لم يثبتوا، فعاتبهم الله تعالى على ذلك.

على أن هذا منهم ليس كذبًا ولا نفاقًا وادعاءً، ولكنها طبيعة النفس البشرية في أنه «ليس الخبر كالمعاينة»، فالكلام يسير ولكن الفعل عسير. ونأخذ من هذا درسين، واحد لأنفسنا والآخر في الحكم على الآخرين:

- أما الذي لأنفسنا فعلى الإنسان أن يفكر فيما يقول وتبعاته، ولا ينطلق من مجرد حماس لحظة عابرة أو رغبة جامحة. - والثاني أننا حين نرى من يخالف فعلُه قولَه فليس هذا بالضرورة علامة على الكذب والنفاق بل قد لا يتعدى الأمر عجلةً وحماسًا، أو عدم تقديرٍ للعواقب.

> **العظماء كلهم سيذهبون، وفقد القيادة لا يوقف المركب ولا يعني التراجع والانكسار، والثبات على الطريق غير متعلق بشخص ولو كان عظيمًا كالنبي ﷺ**

الدرس السادس: استمرار الدعوة لا ينبغي أن يتوقف على وجود القائد:

العظماء كلهم سيذهبون، النبي ﷺ ومن دونه من العلماء والدعاة والمجاهدين والمربين، وسيبقى هذا الدين.

إنَّ الدعاة والمربين بدعوتهم وجهادهم يؤسسون الجيل القادم الذي سيحمل الأمانة، ويواصل في أداء الرسالة، وهكذا تنتقل الأمانة من جيل إلى آخر. ولذلك فإنَّ مما يبعث على النشاط والهمة في الدعوة والعلم أن يستحضر العالم أو الداعية أنه ليس فقط يهدي الناس من ضلالة، ويعلمهم من جهل، بل يساهم في بناء الجيل القادم الذي سيحمل الأمانة ويكمل المسيرة.

ففقد القيادة لا يوقف المركب ولا يعني التراجع والانكسار، والثبات على الطريق غير متعلق بشخص ولو كان عظيما كالنبي ﷺ، فلم تكن عبادة الله عز وجل إرضاءً وتعلقًا بوجود النبي ﷺ، إنما لاستحقاق الله للعبادة، ولأن الغاية من إيجاد الخلق كلهم عبادته وحده، وأنَّ الرسل هم الدليل إلى تحقيق هذه الغاية، والحق ينصر لذاته، ولا تتعلق نصرته بالأشخاص: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [١٤٤] ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [١٤٦].

الدرس السابع: الهزيمة تبدأ من القلب!

قال تعالى: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ [١٤٦]، فالوَهَنُ شعور سلبي في القلب، كما مثّل له الرسول ﷺ في حديثه (حب الدنيا وكراهية الموت)[2]، والضعف ما يعتري البدن، والاستكانة هو الخضوع والاستسلام للعدو. وهذا هو الترتيب التسلسلي للهزيمة، تبدأ من وهن القلب، فيؤثر ذلك على قوة البدن ومقاومة العدو، فيؤول الأمر إلى الخضوع والاستكانة له. ولذلك فإن سبيل الخروج من حال الاستكانة والذل يبدأ

(١) ذكره في كتاب (العقد الفريد) بلا إسناد (١١٧/١)، وهذا كتاب أدبي وليس كتاب رواية.
(٢) أخرجه أبو داود (٤٢٩٧).

من تقوية القلب، والشد من عزيمته، بتصحيح العقائد، وترسيخ الثوابت، والبعد عن المعاصي، وهذا جلُّ ما تدور حوله آيات آل عمران.

الدرس الثامن: الصراحة والوضوح في العلاج أثناء التربية:

سبق بيان أن التربية بالأحداث الأليمة تجمع إلى أخذ العبرة والتثبيت: المواساة، ولكن المواساة لا تلغي الوضوح والصراحة أحيانًا ولو كانت العبارة قاسية على من تقال له.

قسا ليزدجروا ومن يكُ راحمًا
فليقسُ أحيانًا على من يرحم

ومن ذلك هذه العبارة ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾، فإن وقعها على الصحابة الكرام شديد، لكن الخطاب بعمومه عتاب الرحيم الودود، إذ قال عقبها مباشرة ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ بل قرنها بالثناء على فريق منهم ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [١٥٢].

وحبُّ الدنيا قد يتسلَّل إلى قلوب أهل الإيمان والصلاح، وربما خفي عليهم ذلك فآثروها على ما عند الله، مما يوجب على المرء أن يتفقَّد نفسه وأن يفتِّش في خباياها وأن يزيل كل ما من شأنه أن يحول بينها وبين الاستجابة لأوامر الله ونواهيه، يقول سيد قطب: «العقيدة تعلم أصحابها أنّ ليس لهم في أنفسهم شيء، فهم كلهم للّه وأنهم حين يخرجون للجهاد في سبيله يخرجون له، ويتحركون له، ويقاتلون له، بلا هدف آخر لذواتهم في هذا الجهاد، وأنهم يسلمون أنفسهم لقدره، فيتلقون ما يأتيهم به هذا القدر في رضى وفي تسليم، كائنًا هذا القدر ما يكون»[(١)].

> **قد يتسلَّل حبُّ الدنيا إلى قلوب أهل الإيمان والصلاح، وربما خفي عليهم ذلك، مما يوجب على المرء أن يتفقَّد نفسه وأن يفتِّش في خباياها وأن يزيل كل ما من شأنه أن يحول بينها وبين الاستجابة لأوامر الله ونواهيه**

الدرس التاسع: ترداد الرأي في ابتداء المشورة، لا عند استقرار العمل:

قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ [١٥٤]، عن الزبير بن العوام أنه قال: لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف علينا، أرسل الله علينا النوم، فما منا من رجل إلا ذقنه في صدره، قال: فوالله إني لأسمع قولَ مُعَتِّبِ بنِ قُشَيْرٍ، ما أسمعه إلا كالحلم، يقول: «لو كان لنَا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا» فحفظتها منه، وفي ذلك أنزل الله ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾[(٢)].

هذه هي النفوس المرجفة في الجماعة. لقد شاور الرسول أصحابه في الخروج فأشار بعضهم بالبقاء ورغب بعضهم في الخروج، ثم استقرَّ الأمر على الخروج، فأصبح هذا هو قرار الجماعة. وهنا لا يصحُّ لمن كان على الرأي الآخر أن يلمز أو يشمت أو يظهر صواب موقفه، فهذا السلوك يصادم أبجديات العمل الجماعي فضلاً عما فيه من قلة المروءة. وقارن موقف هؤلاء المنافقين بموقف عمر رضي الله عنه بعد أن نزل القرآن يعاتب النبي في أخذ الأسرى في بدر، موافقًا في ذلك رأي عمر، فما ظهر منه شيء من الانتصار لرأيه، بل جلس يبكي مع صاحبيه[(٣)].

الدرس العاشر: وجوب مراقبة نتائج الاختيارات وتوقعها:

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [١٦٥]، القول المشهور أن هذا الجزء من الآية يشير إلى

---

(١) في ظلال القرآن (٤٩٥/١-٤٩٦).

(٢) أخرجه إسحاق بن راهويه، ينظر: المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، لابن حجر (٤٢٦٠)، وسيرة ابن هشام (١١٥/٢).

(٣) روى مسلم في صحيحه (١٧٦٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: فلما أسروا الأسارى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وعمر: (ما ترون في هؤلاء الأسارى؟) فقال أبو بكر: يا نبي الله، هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية، فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام، فقال رسول الله: (ما ترى يا ابن الخطاب؟) قلت: لا والله يا رسول الله! ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تمكنَّا فنضرب أعناقهم، فتمكن عليًا من عقيل فيضرب عنقه، وتمكنّي من فلان (نسيبًا لعمر) فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها. فهوي رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت، فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله وأبو بكر قاعدين يبكيان، قلت: يا رسول الله أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أبكي للذي عَرَضَ عليّ أصحابُك من أخذهم الفداء، لقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة)، شجرة قريبة من نبي الله صلى الله عليه وسلم.

أهم الدروس التربوية من آيات غزوة أحد في سورة آل عمران

- تنويع الخطاب التربوي عقب المصائب والابتلاءات
- استمرار الدعوة لا ينبغي أن يتوقف على وجود القائد
- إعطاء المتربي ما يحتاج إليه لا ما يطلبه فحسب
- الهزيمة تبدأ من القلب!
- خطورة الإرجاف على تماسك المجتمع
- الصراحة والوضوح في العلاج أثناء التربية
- شؤم المعصية
- ترداد الرأي في ابتداء المشورة، لا عند استقرار العمل
- التأني في إطلاق الوعود والتعهدات
- وجوب مراقبة نتائج الاختيارات وتوقعها

مخالفة الرماة، والدرس على هذا القول ظاهر، بل هو أظهر دروس أحد.

لكن ثمة قول آخر ذكره عددٌ من المفسرين كالقرطبي والطبري في هذه الآية، وهو أنَّ فيه إشارةً إلى أخذهم الفداءَ يوم بدر، بدلاً من الإثخان في القتل. وكأن الرابط هنا –والله أعلم– أنَّهم بأخذهم الفداء بقي في القوم شدة وبأس، ذاقها المسلمون في أحد، ولو أثخنوا فيهم في بدر لما قويَ الكفار على قتل هذا العدد من المسلمين. فعلى هذا القول نستنتج فائدةً مهمة. مع أنَّ الله غفر للمؤمنين قرارهم بأخذ الفداء، وأباحه لهم ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [الأنفال: ٦٩] إلا أن هذا لا يرفع عنهم تبعاته. فلله سنن جارية، ورفع الإثم بالتوبة أو الاستغفار لا يلغي قوانين السنن التي لا تحابي أحدًا.

وبقاء أثر المعصية حتى بعد التوبة أمرٌ مستقرٌّ ومعلوم، فالشخص الذي يتوب إلى الله من دوام النظر المحرم أو اعتياد التدخين مثلاً، إذا صدق التوبة غفر الله له ما كان، لكنه قد يجدُ أثر مُداومته على المعصية زمنًا حتى يصلُح قلبه أو ينقى جسده من خُبث المعصية التي كان عليها.

> **من شؤم المعاصي أن يبقى أثرها في حياة المرء حتى بعد التوبة وصلاح الحال**

وفي الختام:

هذه باقة من الدروس واللطائف التي تيسر جمعها من هذه الآيات، فيها عبرة للمعتبر وفائدة للمستفيد، تعظم ثمراتها التربوية عند تدبُّرها وفهمها والعيش معها وربطها بأحداث السيرة النبوية التي رافقتها، على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم.

قراءة في كتاب: العَلمانيون والنبوة، لماجد بن محمد الأسمري

م. عبد القادر معن (*)

في ظلّ سطوة الثقافة الغربية العَلمانية، والدفع باتجاه عولمتها بكافّة مناهجها: الفكرية والسياسية والاجتماعية؛ اجتهد رموز العَلمانية العرب في تنزيل مبادئ العَلمانية الغربية على العالم العربي والإسلامي، لكنّهم اصطدموا بالمنظومة الثقافية الإسلامية الصلبة، والتي تأبى أن تذوب في قالب ثقافة أجنبية عنها مصادمة لها؛ فعمدوا إلى محاولة صياغة الثقافة الإسلامية بما يتناسب مع مبادئ العَلمانية، وتجلت أبرز محاولاتهم في العبث بالتراث النبوي وتحريف مضامينه.

تعريف بالمؤلف:

مؤلف كتاب (العلمانيون والنبوة .. أبعاد التحريف العلماني لمقامات النبوة) الأستاذ ماجد بن محمد الأسمري أكاديمي وباحث مهتم بالقضايا الفكرية والعقدية، وله كتاب آخر عنوانه (الاسترقاق القيمي وجذور المانعة) .

محتوى الكتاب:

يدرس الكتاب محاولات العبث العَلماني بمقامات النبوّة من خلال ثلاثة محاور:

- جدلية الديني والسياسي.
- جدلية علاقة النبي ﷺ بالآخر.
- جدلية بشرية النبي ﷺ ونبوته.

حيث حاول الخطاب العَلماني في كلّ منها إبعاد المرجعية الدينية عنها وتأويلها لتوافق المبادئ العَلمانية.

جدلية الديني والسياسي: هل الإسلام دينٌ ودولةٌ؟

معنى كون الإسلام «دين ودولة» حسب الرؤية الشرعية: أنّ الدولة -والتي يقف على رأس هرمها (إمام المسلمين) أو (رئيس الدولة) بالمسمّى المعاصر، ومَنْ دونه من أجهزة تنفيذية وتشريعية وقضائية- يجب أن تجعل للأحكام الشرعية المرجعية الثابتة والسيادة العليا، وألّا تتعارض قوانين الدولة مع أحكام الشرع الحنيف، وأن تعمل على تنفيذه في الواقع الملموس على كافّة المستويات.

وهذا السؤال غريبٌ شكلاً ومضمونًا على الثقافة الإسلامية التي لم تعرف الفصل بين الديني والسياسي منذ عهد النبي ﷺ، ومرورًا بالتجربة التاريخية بالدول الإسلامية، فالخليفة مهما كان عاصيًا إلّا أنّه لا يزال يخضع لمرجعية الشريعة.

يذكر بعض المفكّرين أنّ طرح العَلمانيين لهذا السؤال يرجع لأسباب، منها: استلهام التجربة الأوروبية، وحلّ مشكلة الطائفية، وربط النهضة بالفصل بين الدين والدولة.

> **الثقافة الإسلامية لم تعرف الفصل بين الديني والسياسي منذ عهد النبي ﷺ، ومرورًا بالتجربة التاريخية بالدول الإسلامية، فالخليفة مهما كان عاصيًا إلّا أنّه لا يزال يخضع لمرجعية الشريعة**

ومفهوم الفصل بين الدين والدولة في التصوّر العَلماني ليس على نسق واحد:

١. فمنهم مَن يرى أنّ المقصد هو إبعاد العلماء والمتدينين عن السلطة السياسية.

٢. ومنهم مَن يرى أنّ المراد هو إبعاد المرجعية الدينية ذاتها عن السيادة والتحكّم في المجال العام.

٣. ومنهم مَن لا يرى مانعًا في قيام سلطة خاصّة في الدولة تُدير شؤون الدين، دون التدخّل في صلب الدولة.

لكن من كتابات أغلب العَلمانيين تجدهم يميلون مع الرأي الثاني القائل باستبعاد المرجعية الإسلامية نهائيًا، وجعْل الدين مسألةً شخصية، والعَلمانيون يبالغون كثيرًا في الترويج لنتائج وخيمة لو تم اتصال الدين بالدولة؛ لترويع الناس من التمسك بالفكرة، وأنّ التجارب في بعض الدول كانت مأساوية.

والأدلة على نقض فكرة الفصل بين الدين والدولة ووجوب تطبيق الشريعة كثيرة، منها:

- **الأدلة النظرية (الشرعية):** التي تأمر بالحكم بما أنزل الله، وهذا الحكم لا يتمّ إلا من خلال تنصيب إمام للمسلمين يحكّم الشريعة.
- **الأدلة العملية:** من فعله ﷺ وتصرفاته كزعيم للدولة الإسلامية مِنْ إرسال الأمراء وعمّال الصدقات والسعاة، وبعث القضاة، وفرض التكاليف والجزية، وإقامة العقوبات والحدود الشرعية.
- **الأدلة العقلية:** فلا يُتصوّر أنّ يأتي الإسلام بالأحكام التفصيلية ويطلب من نظام غير إسلامي تطبيقها والحرص على تنفيذها!

الخلاف العَلماني حول دولة الرسول ﷺ ونظامها السياسي:

تختلف مواقف العَلمانيين من دولة الرسول ﷺ، فهي ليست على نسق واحد، وهذا يدلّنا على عدم صلابة البنية التي تنطلق منها تلك المواقف.

وقد ذهبت خلافاتهم في عدة اتجاهات:

الاتجاه الأول: أنّ النبي ﷺ أسس دولة في المدينة، لكنهم اختلفوا في وصف تلك الدولة على ثلاثة آراء:

- أنّها دولة دينية، لكن لا يجوز أن تستمر بعد وفاته لأنّها دولة دينية تاريخية، أو لا يصحّ أن تستمر لعدم قدرتها على التكيّف مع متغيرات العصر.
- أنّها دولة ديمقراطية أرست معالم الديمقراطية في ذلك العهد، ولم تكن تعرف الدولة الدينية.
- أنّها دولة قبلية تحكم من منطق القبيلة والدين، ومنطق العادات والأعراف.

الاتجاه الثاني: من يرى أن النبي ﷺ لم يكوِّن دولة، وإنما هي دعوة روحية، وأنّه لا يوجد نظام سياسي في الإسلام!

وبين هذين الاتجاهين هنالك آراء فيها قدر كبير من الاضطراب والتذبذب، وعدم الوضوح.

> **يدعي العلمانيون عدم وجود نظرية متكاملة للنظام السياسي الإسلامي وهذه الدعوى تتغافل ما جاء به الإسلام من أسس قام عليها النظام السياسي المتكامل للدولة، من: تفعيل للشورى والقضاء والرقابة والوزراء والأمراء والسفراء والاقتصاد والجيش!**

ضجيج الشبهات:

حين نستعرض الاتجاهات السابقة للبحث عن الشبهات التي دفعت العَلماني لرفض وجود دولة النبي ﷺ، نجدها تدور حول:

١. دعوى عدم وجود نظرية متكاملة للنظام السياسي الإسلامي:

ولا شكّ أنّ هذه الدعوى تتغافل عمّا جاء به الإسلام –سواء من خلال الوحي أو من خلال اجتهادات النبي ﷺ العملية– من أسس قام عليها النظام السياسي المتكامل للدولة، من: تفعيل للشورى والقضاء والرقابة والوزراء والأمراء والسفراء والاقتصاد والجيش!

٢. الاستشهاد بآيات الدعوة والتبليغ على نفي ضرورة وجود وإنشاء دولة:

لكنّ الفقه العَلماني خانه التمييز بين نوعين من الآيات، فآيات «الدعوة والتبليغ» في التعامل مع غير المسلمين دون إجبارهم على الدخول في الإسلام، وآيات «تطبيق الشريعة» موجّهة للنبي ﷺ ومن معه من المسلمين وتخصّ دولتهم وأسس قيامها.

٣. دعوى أنّه ليس من شؤون الدين تكوين دولة:

والزعم بأنّ النبوّة أعلى مرتبة من مرتبة قيادة الدولة، والنبي ﷺ أشرف من أن يصيبه دنس السياسة وأرفع من الدخول في دهاليزها!

وهذه الشبهة ترسّخت لدى الذهن العَلماني بناءً على نظرتهم للدين النصراني، والذي يخلو (بعد تحريفه) من الأسس التي تقوم عليها الدولة وتكفل استمرارها.

٤. دعوى عدم وجود نص إلهي للرسول ﷺ بتكوين دولة:

وهذا الاستنتاج والمغالطة من أفقر المغالطات وأكثرها بلادَةً، فإنّ الأدلّة على وجوب تطبيق حكم الشريعة كثيرة جدًا، ثمّ إنّ العقل العَلماني ليس من نهجه النظر في الأدلّة الشرعية والانطلاق منها في بناء المنهج! لكنّه يمارس خداعًا ينكشف سريعًا أمام الطرح الشرعي الجاد.

٥. دعوى أنّ الدولة تكونت في عهد الرسول ﷺ لكنها كانت مدنية:

وهذه الشبهة قامت وارتكزت على دعوى أنّ (صحيفة المدينة) كانت مَدَنية الطابع لا دينية! فعقد التحالف مع غير المسلمين يقضي برفع صفة الدينية عنه بزعمهم.

وهذا جهل عَلماني بمضمون الوثيقة التي ورد فيها أنّ المرجعية والسيادة للإسلام، وأنّ الحكم للرسول ﷺ، وأنّ اليهود لا يحقّ لهم الخروج من المدينة إلا بإذن منه ﷺ!

من أبرز مصادر الإشكال عند العلمانيين تجاه الإسلام: أنهم يقيسون الإسلام على النصرانية، ومنبع ذلك أن العلمانية في مهدها كانت خروجاً عن الفكر النصراني الكنسي

٦. دعوى أنّ الرسول ﷺ لم ينصّ على حاكم بعده، مما يعني أنّ الدولة غير دينية!

والذي دعا العَلمانيين لذلك هو تصوّرهم أنّ الدولة الدينية يجب أن يُنصّ فيها على الحكّام بالتتابع بأمر إلهي كما هو الحال في الدولة الدينية التابعة للكنيسة النصرانية، فالحاكم في الفكر «الكَنَسي» مفوّض من الله، وينفّذ القرارات باسم الله.

لكنّ عدم التنصيص على الخليفة بعد رسول الله ﷺ فيه إتاحة لتطبيق مبدأ الشورى، كما أنّه لا يستلزم عدم إسلامية الدولة؛ فالعبرة بوجود المرجعية الإسلامية كسيادة عليا ومهيمنة على الدستور، ثم هنالك مساحة لممارسة العديد من القرارات السلطانية في نطاق المباح والمسكوت عنه.

٧. دعوى أنّ الدولة في الإسلام غير دينية والدليل حادثة تأبير النخل!

والصحيح أنّ النبي ﷺ لم يأمر ولم ينهَ كتشريع، وإنّما بنى على مجرّد الظن. وقضية «تأبير النخل» ليست من أمور الدين حتى تُجعل أصلاً يُستدل به على ضرورة فصل الديني عن السياسي، فالسياسي من أمور الدين كما عُلم من أدلة سابقة.

٨. دعوى أنّه لو كان الرسول ﷺ يدير الدولة بناء على الوحي فلماذا كان يستشير أصحابه في بعض الظروف؟

والصحيح أنّ حالات النبي ﷺ مع الشورى ليست على نسق واحد:

» فما كان فيه وحي وأمر من الله فلا شورى حينها، كما حصل في صلح الحديبية.

» وما لم يكن فيه وحي وهو من أمور التشريع، فقد يشاور النبي ﷺ بعض أصحابه، فيأتي الوحي مصوبًا أو مقومًا للخطأ، كما في حادثة (أسرى بدر).

» أمّا ما كان من أمور الدنيا والحرب، فكثير ما كان ﷺ يشاور أصحابه ويستفيد من رأيهم.

٩. دعوى أنّ النبي ﷺ عندما تولى الدولة كان ذلك بمقتضى عقد اجتماعي مع الأوس والخزرج وليس بمقتضى النبوة:

فلو رفضوا سلطته السياسية لما كان ملكًا عليهم، وهذا دليل أنّها كانت دولة مدنية وليست دينية. والجواب أنّ رياسة النبي ﷺ ليست خارجة عن دائرة نبوته، فلا يُشترط فيها شروطٌ زائدة عن الإقرار بالنبوة، ولا يُتصوّر الانفكاك بين الرئاسة والرسالة.

جدلية النبي والآخر:

فشل العَلمانيون في قراءة الموقف النبوي من المخالف قراءة صحيحة، والسبب في ذلك اعتمادهم على عدد من الركائز والمبادئ: كحرّية الاعتقاد والفكر والرأي، والمبالغة في مفهوم التسامح بالمعنى الليبرالي، وإلغاء البعد الديني في قرارات الرسول ﷺ نحو مخالفيه، والاعتقاد بنسبية الحقيقة بزعم أنّ الإسلام -وحتى المسيحية واليهودية- تمتلك الحقيقة، والنظر إلى مركزية الإنسان بغضّ النظر عن عقيدته، مع العمل على إزالة القدسية عن مكانة الرسول ﷺ، وإلغاء الصفة الدينية عن الحروب وإدانتها بشكل قطعي، وتغليب مفهوم حقوق الإنسان بالمفهوم الحديث، والقفز على البعد الديني في العلاقات وتقديم: (المساواة والكرامة والرحمة والتعارف والعدالة والخير العام) عليها.

من بين هذه الركائز والمبادئ: تعدّ «المواطنة» و«الحرّية» من أهمّ المفاهيم المحورية في الخطاب العلماني والتي من خلالها حاولوا قراءة علاقة النبي ﷺ باليهود والمنافقين وكفّار قريش؛ فأخرجوها بصورة محرَّفة في مضامينها لتوافق مبادئهم.

> **فشل العَلمانيون في قراءة الموقف النبوي من المخالف، ويرجع ذلك في الأساس إلى اعتمادهم على الركائز والمبادئ التي تنادي بها الليبرالية المعاصرة، واعتقادهم بنسبية الحقيقة وسحب ذلك على الإسلام**

١. العلاقة مع اليهود تحت مظلّة المواطنة:

تناول العَلمانيون علاقة النبي ﷺ باليهود في المدينة بقدر من العناية والاهتمام، فهم يؤكّدون على أنّ النبي ﷺ عاملهم كمواطنين في الدولة، ويستدلّون على ذلك بما جاء في «وثيقة المدينة» من عبارات دالّة -في نظرهم- على ذلك مثل: (أنّ يهود بني عوف أمّة مع المؤمنين؛ لليهود دينهم وللمسلمين دينهم). وقد استثمر العَلمانيون هذه الوثيقة للدلالة على معنى (المواطنة) بالمفهوم المعاصر والذي يعني: المساواة التامة بين المواطنين المنتمين إلى دولة واحدة في الحقوق والواجبات بغضّ النظر عن الدين والعرف واللون، ليصل بهم الأمر إلى اعتبار هذه الوثيقة أول وثيقة مَدَنية عَلمانية حقوقية على أساس لا ديني!

على أنّ الاعتقاد بأنّ الوثيقة ساوت بين المسلمين وغيرهم من أهل الكتب مساواةً مطلقة من كل الوجوه لا يستندُ إلى برهان، بل إنّ الدليل الواقعي والعملي لا يثبت ذلك، فالرسول ﷺ لم يتّخذ من اليهود وزراء أو مستشارين أو رسل، ولم يرسلهم في مهمات لها علاقة أساسية بالنظام السياسي في المدينة، «فالوثيقة أشبه ما تكون بالنسبة لليهود بعقد الذمّة التي تجعلهم يأمنون على أنفسهم في إقامتهم بين المسلمين، ولكنّ السيادة والشريعة والتحاكم إلى الله ورسوله». وقد ورد فيها شرطٌ مهمّ يدل على وجوب خضوع اليهود لسلطة الرسول ﷺ وهو أنّه: «لا يخرج من يهودٍ أحدٌ إلا بإذن محمد ﷺ».

إضافة إلى ذلك: أنّ قريشًا ذكرت في الوثيقة مع أنّها تمثّل جهة معادية للرسول ﷺ، ومع ذلك جعل لها بندًا قال فيه: «لقريش وحلفائها حقّ الصلح إذا طلبوه، إلّا من حاربٍ منهم الإسلام»، فهل يقال هنا أنّه ﷺ أعطى قريشًا حق المواطنة؟!

ويستمر العَلمانيون في المغالطات ليصفوا ما قام به النبي ﷺ من إجلاء اليهود وقتل بعضهم لمّا نقضوا العهد بأنّه كان مجزرة مخالفة للحقّ

الإنساني، وتصفية شاملة، وأنّ الرسول ﷺ هو من اعتدى عليهم! في حين أنّ الصحيح أنّه ﷺ لم ينقض العهد الذي كتبه مع اليهود، وتجاوز عن كثير من أخطائهم؛ فقد عفا عن بني قينقاع بعد قَتْلهم مسلمًا بعدما شفع فيهم عبد الله بن أُبيّ ابن سلول، وأَذِنَ لبني النضير بالجلاء إلى خيبر رغم أنّهم حاولوا الغدر به، لكن لـمّا ارتكب يهود بني قريظة الخيانة العظمى ونقضوا العهد في غزوة الأحزاب: عاقبهم بحكم سعد بن معاذ رضي الله عنه، الذي وافق حكم الله.

وهناك استثمار ثالث لوثيقة المدينة من قبل بعض العَلمانيين بل وبعض الإسلاميين، بادّعاء أنّها دالّة على جواز قيام أحزاب عَلمانية معارضة ضمن النظام الإسلامي! وهذه دعوى متهافتة، فالوثيقة من أولها لآخرها تنصّ على أنّ الحكم في المدينة لله وللرسول ﷺ، فضلاً عن أنّ اليهود لم يكونوا يظهرون المعارضة ويدعون إلى جعل مرجعيتهم هي المرجعية العامة!

٢. التعامل مع المنافقين تحت مظلّة حرية النقد:

عارض العَلمانيون موقف النبي ﷺ من المنافقين، وتمثّل ذلك في رفضهم لمصطلح النفاق والمنافقين؛ فهم يعتبرونه من النعوت السلبية التي لا تصف الحقيقة، واستبدلوا به مصطلحات أخرى تحمل معانٍ غير سلبية ولا عقائدية، كمصطلح (المترددين)، أو (المعارضة) مع أنّ النفاق في حقيقته أمر باطني لا تظهر معه معارضة ظاهرة، أو (الحياد) مع أنّ مفهوم الحياد يقتضي الوقوف بين رؤيتين متضادّتين والمنافقون كانوا دائمًا ضد المسلمين!

كما ادّعى العَلمانيون أنّ ما كان يقوم به المنافقون في زمن الرسول ﷺ من لمز، وإيذاء، وتآمر، وصدٍّ عن الإسلام، وخذلٍ للمجتمع المسلم، وقذفٍ المؤمنين بألسنة حداد، ودعم للكفار؛ هو نوع من أنواع النقد! بدليل أنّ النبي ﷺ قد أعطاهم هامش الحرية هذا ولم يعاقبهم على شيءٍ مما فعلوه! والصحيح أنّ الموقف الشرعي من المنافقين مرّ بمراحل، ففي البداية كان الأمر بالصبر على أذاهم، لينتهي بالإغلاظ عليهم حتى لم يعد يتمكّن كافر ولا منافق من إيذائهم في مجلس خاص ولا عام أبدًا.

وقد برّر العَلمانيون للمنافقين مواقفهم هذه، فزعموا أنّ النفاق كان نتيجة طبيعية للتشدّد الديني، وأنّ الصرامة في تطبيق الإسلام تحول دون تحقيق إيمان داخلي؛ فيؤدي ذلك إلى النفاق!

ويضع العَلمانيون حلاً لمشكلة النفاق تتمثّل في طريقين:

١. تجريد الشريعة من صفة الإلزام، وعدم جعل الدين قانونًا عامًا يتدخل في التحكّم في المجال العام في حياة الناس، والدعوة إلى تدشين مرحلةٍ من (تديّن الضمير).

٢. محاولة إيجاد صيغة تأويلية للنصوص الشرعية تكونٍ مناسبة لأولئك الناس الذين يعيشون تمزقًا بين الواقع والمنشود.

٣. التعامل مع الكفّار من خلال بيان البُعد الحقيقي للجهاد:

نال «جهاد الرسول ﷺ» من العَلمانيين مساحة وافرة من التشويه، ولائحة طويلة من الإدانة والتجنّي، وسيلاً من الشتائم؛ ذلك لأنّ الجهاد بمعناه السامي يعاكس قِيَم «الحرية» و«الفردية» لديهم؛ فأثاروا حوله الشُبَه التي تدلّ على فقرٍ معرفي لديهم بأحكام الجهاد وأنواعه وضوابطه.

ومن تلك الشبه التي نالت حقيقة الجهاد ضد كفار قريش:

- دعوى أنّها كانت حروبًا من أجل الغنائم والصراع على السلطة: وأنّ الواجهة الدينية لم تكن سوى واجهة لإخفاء الدافع الحقيقي!

وهذه شبهة ساقطة من الأساس، ففضلاً عن النصوص الكثيرة التي تدلّ على أنّ الدافع الحقيقي للجهاد هو إعلاء كلمة الله عن طريق إخضاع النظام العام في الأرض لحكم الإسلام وإزالة ما يفتن الناس عن الحق ويمنع دخولهم فيه اختيارًا، وتربية النبي ﷺ لأصحابه على هذا الهدف السامي؛ فإنّ واقع النبي ﷺ وأصحابه ﷺ يدلّ على أنّهم لم يكونوا طلّاب دنيا، وأنّهم كانوا في شظف من العيش، وقد خُيّر ﷺ بين أن يكون مَلِكًا رسولاً أو عبدًا رسولاً، فاختار أن يكون عبدًا رسولاً.

- دعوى أنّ الجهاد كان جهاد دفع فقط: فهو للدفاع عن النفس لا غير، والسبب في هذا الادّعاء هو فهم العَلمانيين الخاطئ لجهاد الطلب،

وأنّه ينطوي على إجبار الناس على الدخول في الإسلام.

وهذه شبهة ساقطة أيضًا: بما ذكرناه من بيان الدافع الحقيقي للجهاد، وبأنّ الرسول ﷺ لم يُكْرِه المجاورين له من اليهود على الدخول في الإسلام فكيف يتحرك إلى أولئك البعيدين عنه لإكراههم على اعتناق الدين؟ وبأنّه ﷺ لو اكتفى بجهاد الدفع لما انتشر الإسلام في أصقاع الدنيا، ولما وَعَدَ في زمنه بفتح بلاد قيصر وكسرى قبل ذلك، ولما أرسل الوفود بشعار (إمّا الإسلام أو الجزية).

ترى العلمانية أنّ النبوّة مسألة دنيوية أرضية لا صلة للسماء بها، وأنّ الأنبياء شخصيات تاريخية عظيمة، وما جاؤوا به هو أفكار إصلاحية ساهم في تكوينها: مخيلتهم القوية، وتراكم الرغبات والتجارب والموروثات الشعبية لديهم

جدلية البشري والنبوي:

تتصادم العَلمانية مع عقيدة الإيمان بالأنبياء والرسل، فهي ترى أنّ النبوّة مسألة دنيوية أرضية لا صلة للسماء بها، وأنّ الأنبياء شخصيات عظيمة بعيدًا عن الجانب النبوي، وتاريخية أكثر منها مبجّلة ومعظّمة، وأقوالهم ملزمة لكنها ليست بتشريع؛ فما جاؤوا به من أفكار وإصلاحات ساهم فيه بشكل كبير: مخيلتهم القوية، ولاشعورهم الناتج عن تراكمات الرغبات والتجارب، والموروثات الشعبية المحيطة بهم والتي تتمثّل في الذاكرة الجماعية والثقافية المحيطة والمستوى المعرفي، وتدخل فيها الأساطير والهلوسات حسب زعمهم.

لذا يركّز العَلمانيون على تقديم النبي ﷺ باعتباره شخصيّة سياسية أو مدنية أو عسكرية، وليس بصفته نبيًّا، وبالتالي فإنّ اجتهاداته ﷺ غير ملزمة، بل وقابلة للنقد.

وقد تطوّر موقفهم من النبوة تطورًا كبيرًا، ليصل إلى حدّ عرض بعض الدراسات الإلحادية حول إنكار النبوة، ولجؤوا في سبيل ذلك إلى السخرية والتندّر للاستخفاف والتشكيك بمقام النبوة وبخاصة نبينا ﷺ؛ تقليدًا للتنويريين الأوربيين في نقدهم للكنيسة، ولأنّ السخرية أداة فعّالة للتشكيك في المسلّمات.

وهم مع كلّ هذا يحاولون نفي تهمة الكفر عنهم وعن كلّ من ينتقد أو يسخر من الأنبياء! بل ويجعلون العَلمانية هي التأويل الحقيقي للدين!

وتسعى العَلمانية -وفي ضوء تعاملها مع النبي ﷺ كبشر لا نبي- إلى:

- اعتباره مجرّد منتحل لثقافات وأديان قبله، كالمسيحية واليهودية.
- المطالبة بإعادة قراءة سيرته ﷺ ودوافعه على ضوء التيارات المعاصرة كالماركسية والليبرالية وإزاحة البعد الإيماني منها.
- جعل اجتهاداته غير ملزمة؛ فهي مجرّد فهم خاص به مرتبط بالمستوى المعرفي للجزيرة العربية.
- «أَنْسَنَةِ» سنّته باعتبار مصدرها وألفاظها منه ﷺ.
- وصولاً إلى تشويه سيرته والقدح في حياته الأسرية.

ومن أبرز المباحث التي نالها التحريف العَلماني في جدلية البشري والنبوي: المعجزة، والعصمة، والاجتهاد، ودعوى تأثره بأهل الكتاب.

المعجزة:

ينكر العَلمانيون المعجزة باعتبارها حدثًا خارقًا للعادة، وبالتالي فهي تتعارض مع السنن الكونية ولا تخضع لمألوف العقل البشري بزعمهم.

وبالتالي فإنّ موقفهم منها كان على مستويين:

١. فهناك مَن ردّها ولم يقبل منها سوى القرآن؛ لأنّها بزعمهم تخالف مبادئ العقل، فكيف تكون دليلاً على وحي يستند على العقل؟

٢. وهناك مَن حاول تأويلها، وأنّها ليست خرقًا لقوانين الطبيعة بل يمكن تفسيرها علميًا، كتفسير انشقاق القمر بأنّه خسوف! وتفسير حادثة الإسراء والمعراج بأنّها رحلة منامية، أو أنّ الله جمع مراحل هذه الرحلة في روحه!

العصمة:

العصمة هي «لطفٌ من الله تعالى يَحمل النبيَّ على فعل الخير، ويزْجره عن الشَّرِّ، مع بقاء الاختِيار تحقيقًا للابتِلاء»، والأنبياء معصومون في تبليغ الوحي من أن يتطرّق إليه تحريف أو زيادة أو نقصان، ومعصومون من الكفر، ومعصومون -عند جمهور العلماء- من الكبائر ومن تعمّد الصغائر المنفّرة كالذنوب الدالّة على الخسّة.

والعصمة من المسائل التي طالها التحريف العَلماني؛ لأنّها تعني:

» قدسية القرآن، وهم يريدون نقده.

» وحجّية السنّة المطهّرة، وهم لا يؤمنون بحجّيتها .

» وأنّ النبيّ ﷺ قدّ بلّغ الرسالة وأدّى الأمانة، وهم لا يرون حرجًا من اتّهامه ﷺ بالتقصير في ذلك.

» وأنّ العصمة تعني إضفاء القدسية على تصرّفات النبي ﷺ، والمقدّس يعني امتلاك الحقيقة وهذا يؤدّي بزعمهم إلى التعصب وإراقة الدماء!

ويدّعي الخطاب العَلماني أنّ القول بالعصمة قولٌ مبتدَع نشأ بعد وفاة النبي ﷺ، ولهم في ذلك أقوال لا تعدو كونها شبهات متهافتة؛ يناقضها ما جاء في القرآن الكريم من أنّه ﷺ لا ينطق عن الهوى، وغير ذلك من الأدلّة القاطعة.

يحرص العَلمانيون على هدر قدسية السيرة النبوية وجعلها عُرضة للشكّ والنقد، فيزعمون تأثّر الرسول ﷺ باليهود والنصارى، وأنّه التقى بجماعات الموحّدين في شمال الجزيرة العربية وقام بتجديد ما لديهم!

الاجتهاد:

تعامُل الخطاب العَلماني مع اجتهادات النبي ﷺ على مراتب:

- فمنهم من رفض اجتهاده ﷺ مطلقًا.
- ومنهم من رفضه في باب المعاملات فقط لأنّها من المتغير بزعمهم.
- ومنهم من رفضه في الجوانب السياسية بدعوى أنّ السياسة ليست من الدين.

وسبب هذا الرفض هو الخلل في تصوّر العَلمانيين للشريعة في ثلاثة جوانب، والتي هي ركائز المعارضة العَلمانية للشريعة:

١. فالعَلمانيون لا يؤمنون بربّانية الشريعة؛ لأنّه يستلزم اعتقاد كمالها وعصمتها وقدسية أحكامها.

أبرز ملامح تعامل العلمانيين مع النبوة

٢. ولا يرحّبون بفكرة شمول الشريعة وثباتها وكمالها وصلاحيتها لكل زمان ومكان؛ لأنّهم يرون أنّ الشريعة جاءت لزمن تاريخي مضى، وكانت ملائمةً لمستوى معرفي معيّن، والحياة في حالة من التجدّد والتغير لا يستقيم معها الثبات على قواعد كلّية معينة.

٣. ويتطاولون على الفقهاء القائمين على رعاية الشريعة وحفظها وتدريسها ويقدحون فيهم وفي أفهامهم ومناهجهم، ويتّهمونهم بأنهم يشرّعون أحكامًا لم يأت بها النبي ﷺ أصلاً، ويشبّهونهم برجال الدين النصراني؛ لأجل صرف الناس عن الفقه وأحكامه.

زعم تأثره ﷺ بأهل الكتاب:

يحرص العَلمانيون على التعامل مع السيرة النبوية بطريقة تُهدر قدسيتها وتجعلها عُرضة للشكّ والنقد، ومن مراحل السيرة التي يحرصون على نقدها: مرحلة ما قبل البعثة، فبدؤوا بالبحث عن مصدر يمكن أن يكون النبي ﷺ قد استقى منه الدين الجديد؛ فزعموا أنّه تأثّر باليهود والنصارى الذين وصلت أصداء دعوتهم التبشيرية إلى مكّة والتقى بهم في رحلاته التجارية، كما أنّ شغفه قاده للتواصل مع جماعات الموحّدين الموجودين في شمال الجزيرة العربية وقام بتجديد ما لديهم!

وكلّ هذه ادّعاءات لا أساس لها، ومبالغات لا يؤيدها التاريخ، فضلاً عن اضطراب العَلمانيين في الربط بين هذه الادعاءات وبين علاقة النبي ﷺ بالوحي.

وختامًا:

فإنّ المحاولات العَلمانية للتسلّل إلى حقل السيرة النبويّة والعبث في مضامينها لن تتوقّف، فالفضاء العالمي بعَلمانيته المتطرّفة يدفع في هذا الاتجاه، وغاية التيار العَلماني من كلّ هذا الاندفاع هو نفي المقدّس الديني ومنه مقام النبي ﷺ؛ وذلك كردّة فعل خاسرة على اليقظة الدينية في الأمّة الإسلامية.

وأمام هذا الاندفاع العَلماني لا بدّ أن تُبذل الجهود مجتمعةً للذود والدفاع عن جناب النبي ﷺ وإبراز سيرته الشريفة بصورتها المشرقة.

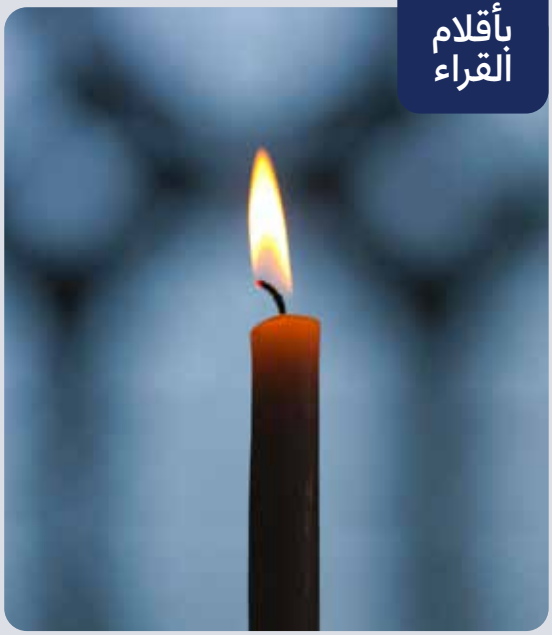

المعلم شمعة تحترق

أ.عروة حسين محب الدين

للمعلم مكانة رفيعة بقدر ارتفاع شأن العلم، قال ﷺ (إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الْحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرَ) أخرجه الترمذي (٢٦٨٥)، رُفعت مكانَته من قبل ربه فأجلَّته جميع المخلوقات لشرف فعله وهديه، فواجبنا تجاهه أن ننصت إليه إذا نصح وذكَّر بآذان واعية، وأن نحترمه ونقدره؛ فهو الذي ينشء الأجيال التي تقود الأمة إلى الخير، تعب وحصَّل العلوم لينقلها بأسلوبه السهل، وننهل من معين علمه وتحت ظلال صبره. وخير ما يكافأ به المعلم هو أن يجد من علمه قد ارتقى وانتفع بما علمه.

أما أنت أيها المعلم فعليك أن تدرك مقامك وتكون قدوة صالحة في مجتمعك؛ فلا تبخل بالنصح لشباب تحيط بهم فتن هذا الزمان وتعصف بهم رياح الشبهات والشهوات، ولا تصم أذنيك عن سماع مشكلاتهم وحاجاتهم النفسية والتربوية والاجتماعية، كن أنت المرآة التي ينظر من خلالها من تربي فيرون فيك مستقبلهم وآمالهم.

ولعل صبرك يدخلك الجنة فلا تحقرنَّ جهدًا مع من تربي، فرُبَّ كلمة تنطق بها كانت لك جبالاً من الحسنات وأنت لا تدري.

إخوة في بلدين

أ.عبد الله صديق

رغم قربها الشديد من مسقط رأسي في حلب، لم أكن أعرف الكثير عن الجمهورية التركية، قصدتها سائحًا بعد عدة سنوات قضيتها بعيدًا عن بلدي أعمل في الخليج، كنت رغم كل تلك السنين ما أزال أشعر ببعض الغربة وأستغرب ذلك من نفسي.

لما وصلت اسطنبول شعرت منذ أول يوم كأني في وطني، ولا زلت أذكر فرحي بهوائها وأشجارها، كان الهواء يملأ رئتي حد الشبع، وانتبهت بعدها أن مظاهر العمران في كثير منها تشبه بلدي فعلاً، المساجد والمساكن وحركة الناس في الشوارع والباعة والبضائع وحتى الطيور والحمَام تذكرني بحلب، فاجأني الترام (القطار) وذكّرني بما سمعت ولم أشهد عن ترام حلب، كنت بالكاد قد تعلمت نطق الحروف التركية ولكم فرحت وأنا أقرأ كلمات فأعرفها فورًا إما لكونها من أصل عربي أو لكوننا مازلنا نستخدمها في لهجتنا الدارجة مذ كنا تحت راية الخلافة العثمانية، إن المنصف لا بد أن يشعر أن ثمة وحدة في التاريخ والثقافة بين السوريين والأتراك، وأنهم إخوة في بلدين.

كيف ننصر الدين

أ.محمد منار

إن الدين الإسلامي الحنيف لا ينتظر منا أن نبذل مجهودًا جبارًا لكي ننصره أو لكي نعزه، بل هو الذي ينصرنا ويعزنا، ومهما بدا منا التقصير والتخاذل في حق الإسلام، يبقى دومًا في الكون طودًا شامخًا ومنارة عالية سامقة تكابد السماء.

إن النصرة التي نبذلها لهذه الشريعة الغراء هي في الحقيقة نصرة لنا وعزة ورفعة، وما يعيشه الواقع العربي الإسلامي من تخبط وترد، وتفكك، وهرولة إلى الوراء، كل هذا بسبب البعد عن الدين وإقصائه من المجتمع والمدنية وحصره في المساجد والزوايا، فقد قيل إذا أردت أن تعرف قيمة الدين عند المجتمع فلا ترى انعكاسه في سلوكياتهم في المعابد بل في سلوكياتهم في المحافل والمجامع.

قال الرسول ﷺ (خياركم الذين إذا رؤوا ذكر الله)أخرجه ابن ماجه (٤١١٩)، فالمسلم الحقيقي والمفضل شرعًا هو الذي يتعانق صلاح مظهره مع صلاح مخبره، فتتناغم مبادئ الدين مع حركاته وتجلياته، لا يكاد يتحرك حركة إلا وفي طياتها تعاليم الإسلام وأخلاقه.

اتباع الهوى وخطره

أ.زكي الغانم

اتّباع الهوى في الدينِ من أخطرِ الأمراضِ التي تعرِضُ للقلوبِ، وهيَ داءٌ خفيٌّ إنَ لم يفتّش صاحبه عمّا في قلبِهِ منَ النّوايا، ويتجرد للحقّ، فقد تسوقه نفسه إلى أن يكون تابعًا لهواه، بل ربما يكون المرء عابدًا لهواه وهو غافل، بحيث لا ينتهي عن المحرمات إلا عمّا لا تشتهيه نفسه، ولا تتوق إليه، ولا يأتمر من الأوامر إلا ما وافق نفسه، فيكون في تلك الحال عابدًا لهواه من حيث لا يشعر، ومَنْ تأمَّل المعاصي؛ وجَدَها تنشأ من تقديم هوى النفوس على مَحبَّةِ اللهِ ورسولِه ﷺ.

وللهوى أضرارٌ كثيرةٌ وكبيرةٌ وعاجلةٌ وآجلةٌ تمنعُ الإنسانَ مما تلذَّذ به، وتُنسِيه ما قد تَنَعَّمَ به. فمن أعظمِ أضراره: خُسْرانُ الآخرة ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ فعلى المرءِ أن يكونَ متَّبعًا لدينه وقَّافًا عند حدود شرعه كي يستقيم له دينُه فلا يخسرَ في يوم الجزاء والحساب، فما فاز من فاز ولا استقام من استقام ولا صلح أمر من صلح إلا بمخالفة الهوى ومجاهدة النفس.

كذلك كنتم

د.خير الله طالب

كان فيمن كان قبلنا ثلاثة نفر، أبرص وأقرع وأعمى، عافاهم الله وشفاهم وحباهم مالاً وفيرًا، ثم اختبرهم بملَك جاءهم على صورة محتاج يطلب معونة، فكابر الأبرص والأقرع وبخلا، واعترف الأعمى فبذل، فحفظه الله، ومحق الجاحدَين. كما في الحديث[1].

مع نمو الخبرة وزيادة العلم وارتفاع الوعي وامتداد العمر يطغى الإنسان الكنود جاحدًا عناية مولاه مذ كان نطفة، حتى قد يشبه حال قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨]، أو ينسيه ما هو فيه من نعمة وطول العهد ما اعتراه من ضعفٍ ورهَق وضغوطٍ وبلاءٍ، أو يجهل حال غيره بسبب انشغاله وبعده عن وقائع حياتهم اليومية ومشاكلها.

قد تتجلى تلك الأخطاء الخفية في: حدّة المعلم أو المدير أو المفتي على المتعلِّم أو المستفتي أو الموظف، ونُفرة المربي من المتربي المخطئ، وقسوة الإنكار على العاصي، وشدة العبارة الناقدة، ونقص الصبر على الأولاد، وتأخير تزويج الشباب سهوًا عن أيام الصبا، والتغافل عن نزغات سابقة، وتناسي ذنوب القلوب والخلوات، واستبطاء استجابة المدعوين غفلةً عن الذنوب، والتقاعس عن الدعوة بعد الهداية، واستصعاب قبول النصيحة من الأدنى شبيهِ الأمس، وتعجُّل المآلات تناسيًا للمراحل، وافتراض المثالية جهلاً بواقعه من قبل.

الجامع بين هذه المظاهر أحيانًا نسيان المرء أنه كان كذلك من قبل، وأن عليه أن يأخذ الناس بحنانه.

دواؤه يبدأ باستشعار منة الله ونعمته التي حُرمها كثيرون طال بهم الجهل والضعف والفقر والعجز، أو تقلَّبوا في موجاتٍ من الحيرة والاضطراب والتيه والعلل، ولم يحظوا بما حظي به، من والدٍ موجِّه، أو والدة عاقلة، أو زوجة رشيدة، أو أبناء بررة، أو مربٍ قدوة يرعى أولادَه، أو علم راسخ، أو دراسة متينة، أو منهج نقي، أو جار تقي، أو صحبة صالحة، أو حاكم عادل، أو قوة عقل، أو تجربة حصيفة، أو نشاط في العبادة والدعوة، أو صبر جميل.

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، فيدوم افتقاركم الصادق إليه، مجاهدين اعتداد النفس والعقل، صابرين على تبصير خلق الله ومساعدتهم، كما بصّركم الله فضلاً منه ونعمة.

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا﴾ [النساء: ٩٤].

أحوج الناس إلى هذه الذكرى القائمون على مصالح الناس: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ [الضحى: ٦-٨]، تذكرة ضرورية دائمة تعينه على الخلق العظيم: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ٩-١١].

فما أحرى المتأسِّي باتخاذ أسباب دوام اليقظة للنعم ورصدها والتحدُّث بها خشية الخذلان والحرمان، فما ثمة إلا رحمةُ الرحمن الرحيم: (أبوءُ لكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وأبوءُ بِذَنْبي)[2]، فإن أحسنت فبنعمته وحده، وإلا فذنبك أنت، ولا شيء غيرهما.

(١) خبرهم في صحيح البخاري (٣٤٦٤).
(٢) من دعاء سماه النبي صلى الله عليه وسلم (سيد الاستغفار). أخرجه البخاري (٦٣٠٦).

ترحب مجلة رواء بمقالاتكم العلمية والفكرية

ضمن المحاور الأساسية للمجلة

ويشترط ألا يزيد حجم المادة المرسلة عن ٣٠٠٠ كلمة، وأن تكون المادة مكتوبة أصالة للمجلة وغير منشورة من قبل، وأن تراعى فيها سياسات النشر في المجلة

كما ترحب المجلة بخواطركم القصيرة ضمن زاوية (بأقلام القراء)

ترسل المقالات والمواد إلى البريد الإلكتروني:
rawaa@islamicsham.org

أكاديمية
تأصيل الوعي

تستمر

أكاديمية تأصيل الوعي

في تقديم الدبلومات في التخصصات الآتية:

» دبلوم مقاصد الشريعة
» دبلوم فقه الخلاف والحوار والعمل المشترك

www.islamicsham.org

islamicsham2 islamicsham

هيئة الشام الإسلامية